مجموعة قصصيّة

عبّاس سليمان

رأسي الجديد

تصميم غلاف النسخة الإلكترونية: صالح مبروكي 2021

نسخة الكترونية

رأسي الجديد

العنوان : رأسي الجديد.

المؤلّف : عبّاس سليمان.

الجنس الأدبي : قصص.

رأســي الجــديد

أنا الآن واحد آخر.

واحد آخر تماما.

واحد آخـر مختلـف عنّـي كمـا كنـت طيلـة أكثـر مـن أربعين عاما مضت.

واحـد جديـد بمواصـفات جديـدة حـدّدتها بنفســي ودفعت فيها مالا طائلا.

شــخص آخـر مختلـف تمامـا لا يغضـب ولا يهتـزّ ولا يحسد أحدا ولا يأرق ليلا ولا يفكّر كثيـرا ولا يحـبّ ولا يكره إلاّ بمقدار ولا ولا ولا...

شخص يأكل القوت إلى أن يأتيه الموت.

اقترضت من البنك بضعة آلاف دنـانير وسـاهم معـي صندوق التّـأمين علـى المـرض ببضـعة ألاف أخـرى واستلفت من إخـوتي مبـالغ طائلـة... ورهنـت الـدّار والجراية... وأصبحت شخصا آخـر... أصـبحت شخصـا سعيدا برأس صغير فارغ هـادئ لـم تدنّسـه قبـل أن يصـبح لـي أفكـار ولا كتـب ولا ضـغط ولا خـوف ولا هواجس ولا وسوسة ولا أرق ولا اكتئاب.

أنا الآن واحد آخر.

واحد آخر تماما.

واحد آخر مختلف عنّي كمـا كنـت منـذ أربعـين عامـا تزيد.

جمع مـدير البنـك أعوانـه بعـدما تسـرّب إليـه سـبب إلحاحي على الحصول علـى مبلـغ كبيـر خـلال أيّـام قليلة وقال لهم :

- بنكنـا لـن يخسـر شـيئا. امنحـوه مبلـغ القـرض وسـيعوّض لنا أموالنـا إن هـو قضـى نحبـه سـريعا صندوق التّـأمين على الحياة.

وقــال مــدير صــندوق التّــأمين علــى المــرض لمساعده :

- الرّجل منخرط في صندوقنا منـذ واحـد وعشـرين عاما لم يلجأ إلينـا خلالهـا طالبـا تعويضـات كبيـرة ولم يحمّلنا غير مصاريف أدويـة و أشـعّة عاديـة... ادفع له قسطا من هذا المبلغ الكبير الـذي تقـول أوراق أطبّائه وصيادلته أنّه سيتكبّده من أجـل أن يتعافى ويصبح شخصا آخر جديدا تماما.

وقال إخوتي :

- لو تخلّينـا عنـه الآن فمتـى نكـون إخوتـه ؟ مهمـا يكـن طلبـه مشـطّا ومهمـا تكـن نتـائج مغامرتـه غائمة وغير مضمونة فلـيس أمامنـا غيـر الوقـوف إلى جانبه.

قالت نائلة زوجة أكبرهم :

- نحن أولى من رأس أخيك بهذه المساهمة التي يدفعونك إليها. هـذا تـرف لـم أسـمع بمثلـه قبـل اليوم. رجل يستبدل رأسه الذي خلق معه بواحد

لا يدري من أين جاء ولا كيف سـيكون... ومـاذا لـو كـان يؤلمـه ؟ مـن منّـا اليـوم لا يشـكو مـن آلام مختلفة في رأسـه... هذا تبذير والمبذّرون إخـوان الشّـياطين.

وقالت حميدة زوجة أوسط إخوتي :

- لا تدفع ملّيما واحدا حتّى تلقى الطّبيب المعـالج وتسأله عن نسبة نجاح هذه العمليّة الغريبة ثـمّ تسـأل مفتـي الـدّيار أو أحـد كبـار الفقهـاء المتشـدّدين مـا إذا كـان اسـتبدال رأس بـآخر مشروعا وما إذا كان التّشجيع عليه يجوز.

وقال فراس أصغر إخوتي لزوجته :

- لن أسمح لـك بـأن تجعلـي منّـي محـلّ سـخريّة أخـويّ. لسـت أقـلّ شـأنا منهمـا. سـأؤجّل كـلّ مشاريعي إلى أن يحيا أخي أو يموت.

لم يكف ما جمّعتـه مـن البنـك وصـندوق التّـأمين وإخـوتي لأصـبح إنسـانا جديـدا مختلفـا عنّـي كمـا عهدتني منذ أربعين سنة تزيد... فتعهّدت للصّـيدلية

بـأن أدفـع بقيّـة المبلـغ أقســاطا شــهريّة وقـدّمت لصاحبها وثيقة رهن الدّار ضمانا لا أستردّه إلاّ عنـدما ينتهي خلاص ما تخلدّ بذمّتي بفوائده.

المهمّ أنّني بعد كلّ هذه الإجراءات وكـلّ هـذا الجـري وراء تجميـع بعـض المبلـغ المطلـوب وتجهيـز الوثائق اللاّزمة أصبحت واحدا آخـر... شخصـا جديـدا مختلفا عنّي... شخصا أحبّه وأرتاح إليـه... شخصـا لا يغضــب ولا يفكّــر ولا يهتــزّ ولا تركبــه الهــواجس ولا يدفعه شـيء إلى الخصومات والأحقاد. أصبحت أضـع رأسـي على المخدّة فأنام سريعا كرضـيع. أسـتلقي فـلا تراودنـي الهـواجس ولا تـدور برأســي أفكـار ولا تخطر على بالي أحداث مضت ولا أتوجّس خيفة من غيب قادم.

وفوق كلّ هذا لم تعد تلك الآلام المبرّحـة التـي اعتادت أن تنغّص عليّ اللّيل والنّهـار تنتـابني... زرت أطبّاء كثيـرين، أطبّـاء عمـوميّين وأطبّـاء أمـراض رأس

وأعصاب ونفس ودورة دمويّة... واستعملت أدوية رعوانيّة وأخرى صيدليّة... وجرّبت الضّمائد والكيّ والاحتجام... وخضعت لتحاليل عديدة مختلفة ولصور لمختلف أنواع الأشعّة... وقصدت حمّامات بخار... ومنتزهات هادئة... وعزلت نفسي أحيانا في قباء مظلمة... ولكنّ آلام رأسي لم تخفّ ولم تبرحني وأخذتني من دنياي. أصبحت لا أتكلّم إلاّ عنها ولا أشكو إلاّ منها ولا أفكّر إلاّ فيها ولا أصرف مالي إلاّ من أجلها. آلام تستقر في الشّطر الأيمن من الرّأس ثمّ لا تلبث أن تتحوّل إلى اليسار... ثمّ إذا استعملت الدّواء لا تخفّ ولا تختفي وإنّما تذهب إلى مؤخّرة الرّأس أو مقدّمته... انقطعت عن التّدخين وهجرت الشّاي والقهوة ولم أبق من السّوائل على غير قوارير الماء المعلّب وتركت السّهر والسّفر والتّلفزة والإذاعة والاجتماعات وجلسات المقاهي وصخب الملاعب ووفّرت لرأسي كلّ أسباب الهدوء ولكنّه لم ينتظم ولم يهدأ وظلّت آلامه تلازمني...

مـــلّ الأطبّـــاء وعـــودهم وملّتنـــي العائلـــة والصّيدليّات والأصدقاء وزملاء العمـل ومللـت حيـاتي ودوائي وأصبحت أكـره رأسـي وبلـغ بـي الغضـب أن هجمت يوما على أحد أطبّائي في عيادته وصـرخت فيه وأنا أرمي على مكتبه علب الدّواء :

- لم تفعل لي أدويتك هذه شيئا. جد لي الآن حـلاّ ناجعا لمشاكل رأسـي.

تـرك الطّبيـب كرسـيّه وجـاء يربّـت علـى كتفـك ويجلس قبالتك ويبتسم ويقول :

- لديّ اقتراح آخـر قـد يخلّصـك مـن آلامـك ويبعثـك شخصا جديدا.
- لا أريد أدوية أخرى ولن أجري مزيدا من التّحاليـل والأشعّة ولو كانت بلا مقابل.
- لا أقصد هذا. أقصد حلاّ آخر قد يكون ناجعـا ولكنّـه سـيكلّفك كثيرا.
- كم ؟
- أكثر ممّا تتوقّع.

- أســتطيع أن أتـدبّر أمـري. المهـمّ أن تـريح هـذا الرّأس وتعيد إليه هدوءه ومرحه.

نهـض الطّبيـب. دار حولـك. تفرّسـك. حـدّق فـي رأسـك. تلمّس عروق رقبتك... ثمّ عـاد إلـى مكتبـه... قـرأ بطاقـة سـوابقك المرضـيّة واسـتعرض بصـوت مسموع كلّ الأدوية التي تناولتها واطّلع على بعض الصّور التي أجريتها... طأطأ رأسه... مصّ ريقـه وفـتح فاه وهمّ أن يتكلّم ولكنّه لم يقل شيئا.

- تكلّم أيّها الطّبيب ولا تخف شـيئا. أنـا فـي انتظـار حلّك الجديد.

قال الطّبيب :

- هل تحبّ أن تستبدل رأسـك هـذا الـذي أرهقـك وأرهقنا بواحد آخر جديد ليس فيه آلام ولا همـوم ولا أفكار ولا سوابق مرض ولا خوف من المجهول ولا حتّى استعداد للتّعب والتّفكير وإبداء الرّأي ؟

- أنت تمزح.

- لســت أمـزح. يمكنـك أن تتّجـه تـوّا إن أردت إلـى الصّـيدلية الجديــدة التــي فتحــت أبوابهــا منــذ أسـبوعين قبالـة سـاحة الشّـهداء وتشـتري لـك رأسا جديدا.
- .....
- سـتجرى لـك عمليّـة القطـع والتّركيـب فـي قبـو خاصّ تحت الصّيدلية ولن يستغرق الأمـر كثيـرا... ساعات وتترك رأسك هذا بين أيـاد أمينـة وتخـرج برأس جديد فارغ هادئ مرح.
- هـل تسـمح أيّهـا الطّبيـب أن نـزور سـويّا هـذه الصّيدلية العجيبة التي تتحدّث عنها ؟

لم يكن خروجـي مـع الطّبيـب غيـر مجـاراة مـن ناحية وتحدّيا مـن ناحيـة أخـرى. قلـت أجاريـه حتّـى أستنفذ كلّ ما يقتـرح علـيّ مـن طـرق عـلاج وقلـت أتحدّاه أن تكون هناك صيدليّة تبيع الرّؤوس وأن يكون الطبّ قد بلغ هذا الشّأن في علاج الـرّؤوس الهائجـة المضطربة العصيّة على كلّ أنواع الدّواء.

ما إن بلغنا ساحة الشّهداء حتّى انتصبت أمامنا بناية ضخمة لم أنتبه لوجودها قبل اليوم بلافتات إشهار مضاءة ومتحرّكة وبأبواب بلّوريّة تنفتح وتنغلق أوتوماتيكيّا يقوم على حراستها جنود غلاظ مدجّجون بأنواع مختلفة من الأسلحة وفيها أجنحة بعدد أصناف الأعضاء المعروضة للبيع.

كشّافات بلّورية تطلّ من ورائها عيون مفتوحة تحدّق في حرفاء الصّيدلية وتغمز لهم وآذان صغيرة أنيقة وقلوب بيضاء وكلى وأكباد ومعدات وأمعاء غليظة وأذرع وأياد وسيقان وأقدام ... اتّجهنا رأسا نحو الجناح المخصّص للرّؤوس البشريّة ووقفنا نتأمّلها ونقرأ البيانات المكتوبة تحتها... رأس صغير هادئ ومسالم... رأس عنيد ثائر ومكابر... رأس مثقّف... رأس فارغ ينتظر من يملأه... رأس فارغ غير قابل للملء... رأس إيطاليّ سعيد...رأس ياباني...

لا حظ الصّيدلاني حيرتي فتوجّه نحوي مبتسما :

- تستطيع أن تذكر لي المواصفات التي تبحث عنها وسأتولّى سريعا البحث عمّا يناسبك من خلال الحاسوب.

قلت :

- أريد رأسا صغيرا... فارغا... هادئا... غير قابل للتّطوير... ولم يتركني أكمل بقيّة المواصفات... أسرع إلى حاسوبه ونقر عليه قليلا ثمّ أشار إلى رأس منتصب داخل صندوق زجاجّي على يميني وقال :

- هذا. إنّه آخر رأس من هذا الصّنف. لك أن تجرّبه على امتداد ثلاثة أشهر ابتداء من تاريخ التّركيب ثمّ إذا لم يناسبك يمكنك استبداله بآخر أو استعادة رأسك الأوّل.

أنا الآن واحد آخر.

واحد آخر تماما.

واحد جديد مختلف عنّي كما كنت طيلة أكثر من أربعين عاما.

تصدير

" عيون/عيون/ ولا شيء غير العيون

أحاول أن أقتل اللّغة المخطئة
بفكر بلادي... عيون
أحاول بقر الظّلام: عيون
أحاول ذبح الدّياجير في مقل مطفأه
بطول البلاد... وعرض البلاد... عيون
أبيع الجرائد... ليلا... عيون
أبيع الجرائد ظهرا عيون
أحدّق/ في صفحات كتابي... عيون
أفكّر في حجز تذكرة بقطار الضّياع...
عيون
زهور الحدائق
عيون
بخور المجامر
عيون
ومن خلف شبّاك جارتنا.../ قد تراءت عيون
وخلف ثيابي/ تراءت عيون
عيون
عيون
ولا شيء غير العيون"

حسن الأمرانـــي
(شاعر مغربي)

عين في بيضة

عنـدما فتحـت زينـب عينيهـا وصـوّبتهما كمـا اعتـادت أن تفعـل كـلّ صـباح فـي اتّجـاه السّـاعة الحائطيّـة المعلّقـة علـى الجـدار المقابـل، كانـت الثّامنة، موعد عملها وعمل زوجها ومدرسة ولـديها، قد اقتربت. أسرعت توقظهم وتنبّههم إلـى أنّ وقـت الخروج قد أزف ثمّ هرولـت إلـى المطـبخ تعـدّ كيفمـا اتّفـق فطـورا سـريعا. فكّـرت زينـب أنّ سـلق أربـع بيضات، سيكون أسرع وأجـدى مـن أيّ شـيء آخـر. رمـت البـيض فـي المـاء ووضـعت المـاء علـى النّـار وعادت تلحّ فـي إيقـاظ الجماعـة وتسـرع فـي وضـع أثوابها وتمرّر كيفما اتّفق المشط على شعرها.

تحلّـق الأربعـة حـول طاولـة الأكـل لاهثـين... وضعت زينـب أمـام كـلّ مـنهم قهـوة سـوداء وبيضـة مسلوقة وقطعة خبز وهـي تحـثّهم علـى ابـتلاع مـا بين أيديهم حتّى لا يفوت أحدا منهم موعد الثّامنة.

التهم الولـدان وأمّهمـا بيضـاتهم المسـلوقة وبـدأ فـي تقشـير البيضـة الرّابعـة الـزّوج وهـو يتـأفّف مـن ضيق الوقت ويبوسة الخبز ومن رائحـة البـيض التـي يمقتها... عندما نزع سـي حمّادي قطعة القشرة لـم يلاحظ تحتها بياض البيض العادي المعتـاد بـل شـعرا رقيقا كشعر الأهداب أسود ناعما. لم يقل للجماعـة شيئا ولكنّه أسرع في نزع بقية غطاء البيضة مغالبـا دقّات قلبـه التـي بـدأت تتسـارع فـي عنـف والعـرق الـذي بـدأ ينـزّ غزيـرا مـن جبهتـه والارتعاشـة التـي سـرت فـي أصـابعه. كانـت الزّوجـة وأبناؤهـا يهمّـون بالوقوف استعدادا لمغادرة المطبخ عنـدما قـال لهـم حمّادي بصوت مختنق :

- انظروا.

نزلت العيون الثّمانية على ما في داخـل بيضـة سـي حمّادي الذي خفّ توتّره بمجرّد ما بدأ الجماعة يشاركونه فزعه وحيرته. ليس تحت القشـرة البيضـاء السّـميكة التي نزعها حمّادي بعناية أبيض ولا أصفر.

تحت قشرة البيضة التي سلقتها زوجته وصبّت عليها ماء باردا ثمّ مدّتها إليه فقشّرها في عناية، وجد سي حمّادي عينا آدميّة مفتوحة تحدّق بثبات في السّقف. وضعها الرّجل برفق فوق الطّاولة والتفت إلى زوجته وابنيه يسألهم تفسيرا لما يرون.

زوجته أسرعت إلى الموقد تشعله من جديد ثمّ ترمي عليه بخورا وهي تتمتم بأسماء وأدعية وآيات من القرآن... وأسرع هو إلى جوّاله يعتذر عبره إلى رئيسه في العمل عن الحضور :

- لا بأس عليك.
- سلقت لنا زوجتي هذا الصّباح أربع بيضات فلم نجد في إحداها لا أبيض و لا أصفر بل عينا آدميّة مفتوحة تحدّق فينا وفي السّقف.

وكلّمت زوجته إدارتها لتخبرها أنّها ستتغيّب عن العمل هذا الصّباح.

- المهمّ أن يكون المانع خيرا.

- سلقت هذا الصبّاح أربع بيضات فوجد زوجي في إحداها مكان الأبيض والأصفر عينا آدميّة سليمة معافاة تحدّق فينا وفي السّقف بثبات شديد.

نزع الطّفلان ميدعتيهما وأعادا إلى طاولتيهما محفظتيهما وخرجا يجوبان ديار الحيّ وأزقّته وينادیان جدّهما وجدّتهما والأعمام والأخوال.

كان الشّيوخ والعجائز أوّل الوافدين. دخلوا يبسملون ويحوقلون ثمّ شرعوا في تأمّل العين التي عثر عليها سي حمّادي في البيضة. وبدأ يفد على الدّار زملاء حمّادي وزميلاته وزملاء زوجته وزميلاتها.

قال أحدهم:

- غريب. العيون في كل مكان.

وقالت عجوز من الحيّ :

- أجزم لكم أنّ الدّجاجة التي خرجت منها هذه البيضة قد اشتهت أثناء فترة وحامها عينا بشريّة. هذا آخر الزّمان.

وجاء الشّيخ عزّام فتأمّل العين المفتوحة وتأمّل القشرة التي كانت تغطّيها وقال للجموع الغفيرة التي كانت تنتظر بلهفة تفسيرا لما حدث :

- لا أستطيع أن أقول شيئا قبل أن تأتوني بالدّجاجة التي أنجبت هذه البيضة.

وشاع خبر العين البشريّة التي وجدها حمّادي مختبئة في بيضة سلقتها زوجته فتهاطل على الدّار أعوان الحرس الوطني وأعوان الشّرطة وجاء وراءهم رئيس البلديّة وحاكم المنطقة ووقفوا واحدا وراء آخر يتفرّجون على العين التي أبى حمّادي أن يزحزحها عن طاولة الأكل أو يبعدها عن قشرتها التي كانت تغطّيها.

قال المسؤولون:

- يجب أن نسأل أهل الذّكر.

ثمّ أرسلوا من يأتيهم بكلّ أطبّاء وطبيبات البلدة وجرّاحيها. ولم يسأل أحد من كلّ الذين مرّوا عرضا أمام دار حمّادي عن سبب مجيء هذا الخلق الغفير. كلّهم كانوا يكتفون بقول : الله يرحمه. ثمّ يمدّون أيديهم في خشوع إلى بعض الجالسين ويعزّونهم متمتمين :

- البركة فيكم.

تفحّص الأطّباء العين، أهدابها وحجمها ووزنها وسوادها وبياضها وقالوا للمسؤولين :

- يحسن أن نسأل أهل الذّكر. نحن ذووا شهادات في الطبّ العامّ ولا بدّ من استشارة طبيب عيون.

قال المسؤولون إنّهم مستعدّون لتوفير سيّارة سريعة تجلب طبيب العيون من المدينة المجاورة وإنّهم سيتكفّلون بإعطائه الأجر مضاعفا. فجاء بعد ساعة واحدة طبيبَا عيون أخلى لهما أعوان الأمن

المطبخ وأدخلاهما. فحصا العين وتثبّتا من حجمها ووزنها ومساحتيْ بياضها وسوادها ثمّ عمدا إلى ماء ساخن فوضعاها فيه فراعهما أنّ العين انغلقت... أخرجاها وأعاداها إلى الطّاولة فبدأت تسيل منها قطرات من الدّمع... نقلاها إلى الثّلاّجة فاستعادت صفاءها وألَقها وعادت تحدّق في عيون الطّبيبين هادئة مطمئنّة.

تهافت على دار حمّادي متصاحفون وصحفيّون ومصوّرون كثيرون ومبعوثو إذاعة وتلفزات وأخذوا يسألون سي حمّادي وزوجته وابنيه وشيوخ الحيّ وعجائزه والأطبّاء وأعوان الأمن ومسؤولي البلدة ويعبّؤون أوراقهم بكلام سمعوه وبكلام لم يسمعوه...

وتسلّلت صحفيّة إلى المطبخ فالتقطت صورا للعين ولقشرة البيض وبقايا القهوة وفتات الخبز... وسأل مصوّر عن العطّار الذي باع حمّادي البيض فالتقط له صورة وجاب آخر دور الحي وأزقّته يلتقط

صور دجاجه وديكته وصور بقـع المزابـل التـي يقتـات منها... ثمّ جاءت مـن أقصـى المدينـة سـيّارة فارهـة تسـعى، نـزل سـائقها وخـفّ إلـى البـاب الخلفـيّ يفتحه فنزل رجل أنيق يغطّي عينيه بنظّارات سـوداء وترك السّـائق يشـقّ لـه طريقـا بـين جمـوع الخلـق حتّى أوقفه أمام صاحب العين.

- بكم تبيع لي عينك يا حمّادي ؟ سأدفع لك ثمنها مضـاعفا وسـأدفع لكمـا أيّهـا الطّبيبـان أجرتكمـا مضـاعفة إن أنتمـا اسـتطعتما أن تزرعاهـا مكـان إحدى عينيّ المنطفئتين.

وفيما وجم حمّادي ولم يستطع أن يقـول للرّجـل الأعمـى شـيئا، أعجبـت فكـرة زرع العـين الطّبيبـين فاسـتخرجا جوّاليهمـا وشـرعا فـي التّشـاور بلغـات كثيرة مع زملاء لهم وأساتذة ورؤساء أقسام قبـل أن يلتفتا إلى الرّجل الأنيق يسألانه عن أمراض طفولته وسوابقه المرضيّة وسبب عمـاه وتاريخـه والفحـوص التي أجراها والأطبّاء الذين تردّد عليهم.

قال الرّجل الأعمى محذّرا :

- ولكنّي لـن أدفـع ملّيمـا واحـدا قبـل أن يرتـدّ إلـيّ بصري. هذه عين وجدها سـي حمادي في بيضة سـلقتها زوجته لمدّة عشـرين دقيقـة فـي درجـة حراريّة لا أظنّ أنّها قلّت عن السّبعين. ثمّ بلغنـي أنّكم صببتم عليها الماء السّاخن ثـمّ وضـعتموها في الثلاّجة ثـمّ عرضـتموها علـى مئـات الأعـين الأخـرى... مـن أدرانـي أنّهـا عـين مبصـرة وأنّنـي بعدما أخضع للتّجربة سأخرج للنّاس مبصرا ؟

تدخّلت زوجة حمّادي وقالت له :

- لا أحد أجبرك على شرائها منّا.
- وهل دفعتم فيها أنتم ثمنا ؟
- نعم. دفعنا مـا لا يقـدّر بكـلّ الأثمـان : فزعنـا هـذا الصّباح وتسـارع قلوبنا وإشـرافنا على المـوت مـن شـدّة الخـوف... وهـذا الهـرج الـذي تحدثـه هـذه الآلاف المؤلّفة حولنا... وقد نصـاب مـن جـرّاء كـلّ هذا بالعين !

- نتّفق حول مبلغ أدفع لكم نصفه قبل إجراء العمليّة ونصفه الآخر بعدما يرتدّ بصري إليّ.
- وإذا لم يرتّد إليك بصرك ؟
- تعيدون إليّ أموالي وأعيد لكم عينكم.

قبض سي حمّادي شيكا بنصف المبلغ ولفّ الطّبيبان العين في قطعة قماش بيضاء نظيفة وسارت سيّارتهما وسيّارة الرّجل الأنيق وسط كوكبة من سيّارات الأمن والجيش. وخرج النّاس في مظاهرات سلميّة يطالبون بأن تبّث لهم التّلفزة مباشرة عمليّة الزّرع من أوّلها إلى حين ظهور النّتيجة فأمر وزير الإعلام بأن يلبّى طلب المشاهدين موصيا بأن تجرى عملية الزّرع ليلا حتّى لا يتخلّف الخلق عن أعمالهم.

ليلتها بات النّاس متسمّرين على مدى سبع ساعات أمام أجهزتهم يتابعون عمليّة الزّرع ثم تكلّم كبير الأطبّاء فأعلمهم أنّ النّتيجة لن تظهر قبل ثلاثة أيّام أخرى.

وفيما أخذ الجميع يدعون للرّجل الأعمى أن يصبح مبصرا متمنّين أن تعوّضه العين التي عثر عليها حمّادي في بيضة مسلوقة عن عينيه المنطفئتين، أخذ سعر البيض والدّجاج في الارتفاع وزادت نسبة الإقبال عليهما وأصبح أصحاب المداجن يعلّقون أمام دجاجهم صورا واضحة بالألوان لقطع غيار بشريّة ثمّ انتبهوا إلى أنّ الصّور المعلّقة قد لا ترسب في أرحام الدّجاج أثناء الوحام فجهّزوا المداجن بشاشات تلفزة من الحجم الكبير وشرعوا يبثّون عبرها أشرطة فيديو تراوح بين موسيقى مثيرة للتّنبيه وصور حقيقيّة واضحة للأكباد وللكلى وللقلوب وللعيون.

بائع التّين والرّجل الصّورة

أنهى جميل تصفيف كدسي التّين فوق العربة : كدسان هرميّان أخضر في لون الجنّة على يمينه وأسود كنهودٍ سمراء فتيّة على يساره، ثمّ وضع بين الكدسين آلة الوزن وعلّق على جانب العربة الأيمن أكياسا بيضاء وعلى جانبها الأيسر أوراق جرائد... وضع أمام الميزان معلّقة عليها "يا رزّاق" وبدأ ينادي ويصف للمارّة تينه : طعمه وعسله وقيمته وفوائده.

بدأت حركة السّوق تشتدّ وبدأ النّاس يتكاثرون حول السّلع المبثوثة فوق الأرض وفوق العربات وعلى الطّاولات وفي أيدي الباعة وحول رقابهم... السّوق اليوم يوافق عطلة عيد المرأة، يستغلّه الموظّفون والموظّفات لاستعراض بضائعه وقضاء ما يلزمهم منها... والسّوق اليوم يوافق موسم الأعراس، يأتيه المقبلون والمقبلات على الزّواج للتزوّد منه بآخر ما يلزمهم من ملابس وعطور وأقمشة وهدايا وماعون وأفرشة وأثاث.

نظر جميل إلى كدسيْ تينه فألفاهما مكتملين لم ينقص منهما منذ صفّفهما شيء يذكر... دار أمام العربة واختار من كلّ كدس تينة من الحجم الكبير المغري وشرحها ثم علّق شقّيها في أعلى الهرم وبدأ ينادي مجدّدا مادحا بضاعته وهو يرجو أن يبيع أكثرها قبل اشتداد الهاجرة وقبل خلوّ السّوق من الحرفاء وقبل أن تصيبها الحرارة باليبوسة والعفونة.

عندما همّ جميل بالخروج من داره هذا الصّباح، جاءه من زاوية من زوايا البيت صوت أمّه ينبّهه إلى أنّ موعد إجرائها العمليّة الجراحيّة على عينها اليمنى قد أزِفَ... وردّدت على مسمعه زوجته أنّه عليه أن يدفع إليها ثمن الملابس الجديدة التي ستحضر فيها عرس أختها... واعترضه صاحب الدّار ليذكّره بأنّه لم يدفع له معلوم الكراء منذ شهرين... ملأ العربة وساقها أمامه وهو يتمتم بكلام غير مسموع... ثم لمّا استقرّ بمكانه المعتاد من السّوق، نسي أمّه وزوجته وصاحب الدّار وركّز كلّ اهتمامه على تينه وميزانه والمارّين أمامه ووراءه وعلى يمينه وعلى شماله... سأله الكثيرون بكم يبيع الكيلو من التّين ولكنّ الذين طلبوا أن يزن لهم شيئا دون أن يجادلوه في السّعر ولا أن يتأفّفوا من غلائه قلّة.

جاوزت السّاعة العاشرة ولم ينقص من الهرمين الأسود والأخضر إلاّ القليل... بدأ اليأس يأكل

جميلا فشرع يكثر من النّداء ثم نـزع بحركـة عصـبيّة مظلّته وأخذ يهشّ بها علـى الـذّباب وعلـى جحافـل النّـاموس التـي جلبهـا عسـل التّـين... فـي طـرف الشّارع، زمّرت سـيّارة تزميـرا قويّـا متواصـلا... انتبـه جميل فرآها تتهادى ثم تتوقّـف أمـام عربتـه. سـيّارة سوداء طويلة أطلّت عبر بلّور مقعدها الخلفي سيّدة لا يذكر جميل رغم خبرته الطويلة بالسّـوق وحرفائـه أنّه رآها يومـا تقـف علـى بضـاعة أو بـائع أو تشـتري شيئا. نظرت إليه... نظر إليهـا... إلـى مظلّتـه الكبيـرة البيضـاء ناصـعة البيـاض... إلـى شـعرها الـذّهبي المنسـدل علـى وجههـا وكتفيهـا... إلـى عينيـه الزّرقاوين الصّافيتين... إلى نظّاراتها البنّية العريضة... إلـى شـاربه الكـثّ... إلـى شـفتيها الطـريّتين القرمزيّتين... إلى صـدره الأسـمر العـريض العـاري... إلى صدرها المكتنز الأبيض شبه العاري... همسـت للسّائق فقفز يفتح الباب ثمّ سار وراءهـا يحرسـها... وقفت أمام العربة... نظرت إلى الهرمين... إلى أصابع

جميل الخشنة الممتلئة المتردّدة بين أوراق الجرائد والأكياس البيضاء. بلع جميل ريقه... جمع شجاعته وأطلق في وجه حريفته الجميلة تحيّة صباحيّة طويلة... لم يسمعها تردّ على تحيّته ولكنّه سمعها تسأله عن التّين.

- بلا ثمن.

ضحكت ثمّ أدخلت يدها في حقيبتها اليدويّة وأخرجت منها بطاقة مكتوب عليها إسم الشّارع ورقم المنزل.

- زن لي ستةّ أرطال من كلّ لون وأوصلها مع منتصف النّهار إلى هذا العنوان.

تجمّع حول جميل مشترون كثيرون. كلّهم طلبوا منه أن يزن لهم التّين. لا أحد منهم سأل عن الثّمن أو جادله في السّعر... أسرعت أصابع جميل تهدم في عناية الهرمين اللّذين شيّدتهما هذا الصّباح... وأسرعت السّيّدة الجميلة تنسحب وهي تحذّره :

- إيّاك أن تنسى.

لم يفهم جميل لماذا لم تأخذ حريفته تينها معها ولماذا لم تطلب من سائقها أن يأخذه أو يعود إليه ولماذا أمرته أن يوصله بنفسه إلى حيث منزلها... ولكنّه فهم أنّ تينه أعجب حريفته الجديدة وأنّ حريفته الجديدة أعجبته وأنّ وقفتها على عربته جلبت إليه حرفاء كثيرين فسقط هرماه ونفِدت بضاعته وامتلأ جيباه.

ضغط جميل على الزّرّ وظلّ واقفا وهو يشعر بالارتياح لمشاهدته السّيارة السّوداء الطّويلة تقف في نهاية الممرّ الطّويل. لم يسأله الرّجل الذي فتح له وسمح له بالدّخول عن شيء وإنّما اكتفى بأن أخذ منه التّين وقاده مباشرة إلى قاعة استقبال فاخرة. أطلّت صاحبته فرحّبت به وشكرته على مقدمه وعلى تينه وصبّت له كأسا.

لم يكن جميل قد شرب شيئا كهـذا قبـل اليـوم ولكنّـه لـم يجـد شـجاعة ليـرفض عـرض مضـيّفته أو يعتذر إليهـا. أمسـك مـن يـدها الكـأس وعبّهـا دفعـة واحدة. جفّ حلقه واحمرّت عيناه فوقف يريد الخروج.

- لا أريـد ثمنـا للتّـين يـا سـيّدتي. هـو هديّـة منّـي إليك. عربون تعارفنا.

قامـت وأمسـكته مـن يـده وسـحبته عبـر ممـرّ طويـل إلـى غرفـة نومهـا. سـار وراءهـا كـالمعتوه. كالأبلـه. أجلسـته علـى السّـرير... قبّلـت يديـه الخشـنتين ولعقـت بلسـانها رائحـة التّـين وبقايـاه فوقهما ثم انسحبت عبر باب داخليّ إلى الحمّام.

وقف جميـل مشـدوها يجيـل عينيـه الزّرقـاوين الصّافيتين في الغرفة الواسعة وينقلهما بين السّرير والتّلفـزة و قـوارير العطـر وأدوات التّجميـل... ثـم رفـع عينيه إلى أعلى يتأمّـل نقـوش السّـقف وزخارفـه... ثمّ نزل بعينيه إلى الجدران يتأمّل ما عليها مـن صـور ورسـوم... هذا القدس المحتـلّ... وهـذا بحـر هـائج...

وهذه صورتها... وهذا... رجل...يعرفه ! جحظت عيناه وسـرت ارتعاشـة فـي كـلّ بدنـه. هـذه صـورة أليفـة لرجل رآه مرارا في مناسبات كثيرة بـل إنّـه كثيـرا مـا وضع فوق رأسه وبين يديـه حبّـات التّـين وهـو يلفّهـا في الجرائد قبل أن يضعها في الأكياس...

أغمـض جميـل عينيـه وأدار رأسـه فـي الاتّجـاه المعاكس للصّورة ولكنّه ما لبث أن التفـت ليتأكّـد إن كان الرجل المعلّق أمام عينيه هو عينه الـذي اعتـاد أن يضع عليه حبّات التّين صيفا والتّمـر خريفـا... نظـر إليـه ولكـنّ عينـي الرّجـل اتسـعتا واحمرّتـا وحـدّقتا فيه... انتفخت أوداجه وتصلّبت عروق رقبته وهـمّ أن يقول شيئا ولكنّه أحجـم عـن الكـلام ومـدّ يـده إلـى حزامه يسحب مسدّسـه. رفـع جميـل ذراعيـه إلـى أعلى وجثا على ركبتيـه. حـاول أن يقـول شـيئا... أن يعتذر... أن يطلب الصّفح... أن يقول إنّه هنـا لتسـليم أرطال التّين وإنّه لا يطمع حتّى في قبض الثّمن. أراد أن يوضّح للرّجل صـاحب المسـدّس أنّـه بـائع بـدويّ

قـادم مـن أعمـاق الرّيـف وأنّـه لـيس مـن الشّــهامة عنـدهم هـم البـدو أن تـردّ لامـرأة غريبـة شــهوة أو يرفض لها طلب... أراد أن يتعهّد أمـام الرّجـل صـاحب الصّورة بأنّه لن يطأ ساحة داره مرّة أخرى...

من وراء الباب، هتفت صاحبة البيت :

- تعال إليّ يا بائع التّين. ادفع الباب وادخل.

حرّك البائع عينيه في وجه الرّجـل يسـأله عمّـا يفعله فابتسم له الرّجل ابتسامة ماكرة قالت له :

- جرّب. حاول أن تدخل إليها. وسترى.

هتفت المرأة ثانية :

- لماذا لم تأت ؟ هيّا بسرعة.

ولكنّ جميلا لم يتحرّك. ظلّ جاثيا علـى ركبتيـه ويـداه إلـى فـوق وعينـاه تتوسّــلان إلـى مسـدّس الرّجل أن يتعقّل.

ضاق صبر المرأة ففتحت باب الحمّام وأطلّت... غمرت الغرفة رائحة الصّابون وغمر جميلا العرقُ بمجرّد أن رآها تخرج إليه عارية إلاّ من طبقة كثيفة من الرّغوة البيضاء المعطّرة... فوجئت به يجلس على ركبتيه ويجهد نفسه لرفع يديه ويحملق بعينين مرتجفتين في صورة زوجها فلم تتمالك نفسها من الضّحك.

- انهض، أمرته ضاحكة، أعجبتني لأنّه لاشيء فيك يوحي بأنّك جبان... فإذا أنت تخاف من صورة لا قوّة لها ولا حول.
- انظري. ألا ترين أنّه يشهر فينا مسدّسه ؟
- كيف تشهر صورة معلّقة على جدار مسدّسا ؟ بيننا وبين هذا الرّجل الذّي يخيفك الآن آلاف الأميال. ألا تقرأ الجرائد ؟ ألا تسمع نشرات الأخبار؟

ثمّ لتستفزّه :

- يبدو أنّني أخطأت الاختيار هذه المرّة.

ابتسـم جميـل كمـن يعتـذر ونهـض متجـاهلا نظـرات الرّجـل المتّقـدة وسـيفه المسـلول وأسـرع يتقدّم صاحبته إلى الحمّام وهـو يلعـن يـوم السّـوق وعيد المرأة وثمار التّين وشركة الـ..... التّـي أطردتـه فاضـطرّ إلـى أن ينتصـب فـي السّـوق بائعـا للغـلال. فجـــأة، دوّت وراءه رصاصـــات قويّـــة ســـريعة متلاحقـة.التفـت مـذعورا فـرأى صـاحبته تقـع أرضـا والــدّماء تنــدفع منهــا وتختــرق الرّغــوة البيضــاء المعطّرة... نقل عينيه إلى أعلى فرأى الرّجل الصّورة ثابتـا فـي مكانـه لـيس فـي عينيـه جحـوظ ولا فـي أوداجه انتفاخ ولا بين أصابعه مسدّس. اسـتدار نحـو البـاب هاربـا فأمسـكته مـن رقبتـه يـد قويّـة غليظـة سرعان ما أذعن لها وطأطـأ رأسـه ومشـى ووجهـه إلـى الأرض وهـو يلعـن التّـين ويـوم السّـوق وعيـد المرأة...

حكـــاية راقصـــة

لم تكن له معها علاقـة تسـتحقّ الـذّكر، لـم يكـن يفكّر فيها، ولم يكن يهتمّ بها ولم تكـن فـي الأمـاكن القليلة التي اعتاد أن يرتادهـا تتـاح لـه. وحتّـى فـي الجلســات المتباعــدة التــي يلــحّ عليــه أصــدقاؤه ليؤانسهم فيها، لم يكـن يشـرب منهـا كثيـرا. قـوارير معدودات يتجرّعها أخذا بخـاطرهم مـرّات قليلـة فـي العام يفصل بينها صوم يمتدّ إلى ثلاثة أشــهر أحيانـا. ولم يكن يخجل كلّما دار حولها حديث أن يعارض كـلّ المتحدّثين ويقـول إنّهـا لا تعـدو أن تكـون شـرابا مـرّا ثقيلا لا نكهـة فيـه ولا فائـدة منـه... وإنّـه حتّـى وهـو يتناوله لا يجد لتناوله مبـرّرا ولا سـببا واحـدا للإقبـال عليــه وإنّــه لــولا أن أصــحابه يتّخــذون مــن الغابــات والمغاور الجبليّة أمكنة لجلساتهم مستعيضين بهـا عن صخب الحانات ومرجها لما شاركهم فيها.

ليلتها، شرب حتّى سكر وحتّى أصبح يمشى مترنّحا وقاء كلّ ما أكل مع الشّراب وقبله وأصبح يهذي. كان مع أصحابه الذّين اعتادوا دعوته ليؤانسهم وليتمتّعوا بنكته التي لا تنتهى.

لم يكونوا في الغابة.

ولم يكونوا في مغارة جبليّة.

كانوا في حانة المدينة.

هذه هي المرّة الأولى التي تحمله فيها قدماه إلي الحانة، جاء إلى الحانة طوعا. جاءها رغم كرهه المعلن لها ولأصحابها ولروّادها ورغم أنّه أقسم مرارا أنّه لن يمرّ أمام ساحتها حتّى ولو أقطعوه شطرها بلا مقابل. ذهل أصحاب المحلّ وذهل عدد كبير من روّاده لمرآه يقف على عتبة السّطح ويجيل عينيه في المكان ثمّ يختار طاولة يتقاسمها مع أصدقائه ويصفّق للنّادل تصفيقا لاهثا متواصلا.

منذ شهر وهو يسمع في المقهى وفي العمل والشّارع وفي أماكن أخرى عن الكارثة الجديدة التي حلّت بالبلاد. منذ شهر وهو يسمع ويسمع ولا يتكلّم ولا يبدو عليه أنّ ما يتناهى إلى سمعه يعنيه أو يؤّثر فيه أو يجد لديه اهتماما.

قالوا إنّها حوّلت اللّيل نهارا.

وقالوا إنّها ساوت بين عنفوان الصّبا ووقار الشّيوخ.

وقالوا إنّها هتكت أقنعة الرّجال وأخرجتهم لبعضهم بعضا على حقائقهم.

وقالوا إنّها أفرغت الجيوب وأثارت غضب النّسوة وأقامت القيامة في غرف النّوم.

وقال التّجّار إنّهم سيغلقون دكاكينهم إن استمرّ الحال على هذا النّسق.

وقالت فروع البنوك إنّ مطالب القروض والتّسبقة على الأجر بلغت ارتفاعا لم تبلغه في كلّ الأعوام الأخرى.

وقالت النّساء إنّهن انتبهن إلى تناقص ثمّ اختفاء لقطع مصوغهنّ وحتّى مدّخراتهنّ الصّغيرة.

وقال أرباب العمل إنّ الإنتاج تضاءل وإنّه لا أحد من مرؤوسيهم أصبح يكترث بتوقيت العمل في الغدوّ وفي الرّواح.

وقالوا وقالوا وقالوا... وقالوا إنّه ليس كمثل هذه الكارثة كارثة... ولكنّ دعوات كثيرة كانت تتسّلل إلى الله في كلّ ليلة ترجوه أن يبقي للعشّاق كارثتهم سليمة معافاة تقصّر لهم ليلهم ويدسّون أو يدكّون فيها قلقهم وكآبتهم ورتابة أعمارهم.

ذهب إليها كلّ زملاء العمل ولم يذهب.

وذهب إليها كلّ أصدقاء المقهى ولم يذهب.

وتحوّل إليها جيرانه، الذين من فوقه والذين من تحته والمحيطون به... ولم يذهب.

بينه وبين نفسه، تمنّى لو أن هذه الكارثة حلّت في غير هذه الحانة التي سمعه النّاس مرارا يقسم أنّه لن يمّر أمامها ولن يدخل إليها.

بينه وبين نفسه، تمّنى لو تلتقط التّلفزة لهذه الأفعى صورا تبثّها ولو مرّة وحيدة ليراها ويخمد برؤيتها اللّهيب الذي أجّجته فيه أفواه المدينة.

وبينه وبين نفسه، تمنّى على النّاس أن لا يتحدّثوا عنها في حضوره حتّى لا يفعل فيه حديثهم شيئا...

ولكنّ النّاس ظلّوا يتحدّثون وظّل مرقص الحانة يستقبل كل ّليلة عيونا جديدة وظلّت الكارثة محّل اهتمام المدينة.

عندما يئس منه أصحابه، تركوه. اقتنعوا أنّه لن يتزحزح عن قسمه وتصميمه وخشيته وحيائه من أن يراه النّاس يشرب الجعّة علنا في مرقص ليليّ فتركوه.

تركوه إلى أن يئس من عودتهم إلـى الإلحـاح عليه... ثمّ عادوا إليه.

قالوا له :

- إمّا أن تذهب معنا إليها ولو ليلة واحدة وإمّـا فهـذا فراق بيننا وبينك.
- إمّا أن تكمل فرحتنـا بانضـمامك إلينـا ولـو ليلـة أو بعض ليلة وإمّا فلن نشاركك فرحا ولا ترحا.

ثمّ طفقوا يحدّثونه عنها، عن طولهـا وعرضـها وامتلائها وخفّتها ورقصها وجمالها.

تظاهر بأنّه لا يستطيع أن يـرفض لهـم طلبـا وانـدّس بينهم ومضى إليها... يسـبقه عطره وخوفـه ومـا فيـه من أسئلة ومن جوع ومن نهم.

أحسّ أصحابه والقوارير تهمـي علـى الطّاولـة أنّهم أحسـنوا صنعا بجـرّه إلـى السّـهرة... شـوأحسّ هو منذ الوهلة الأولى التي أطلّت فيها الرّاقصـة أنّـه

لم يكن أبدا غبيّا كما كان طيلة رفضه السّهر في مرقص الحانة.

أطفئت الأضواء واشتعلت... ووشوش النّاس ووجموا... ثمّ أطّلت... فخفتت أصوات الموسيقى وارتعشت أنوار وذبلت أخرى وملأت فضاء السّطح العالي تنهيدة جماعيّة تلاها زفير ونهيق وشهيق.

فارعة الطّول وممتلئة. مستدير وجهها، مستديرتان عيناها، مستديران نهداها...

كان يحدّق فيها بعينيه ويشرب ويزحف بكرسيّه في اتّجاهها. كانت عيناه تحاولان أن تلتقطا كلّ شيء فيها دفعة واحدة : عينيها وابتسامتها ولحمها المختلج وفتنتها...

كانت ترقص ضاحكة... تضحك راقصة... تضحك وترقص وهي تحني صدرها على الطّاولات تلتقط بنهديها عرابين الجنون... دخلت يده اليمنى جيبه... قبضت على ما فيه من أوراق نقديّة... وضعت يده

اليسرى القارورة فوق الطّاولة... ارتفعت إلى أعلى في اتّجاه صدر الرّاقصة تلحّ عليه ليقترب... نظرت إليه... إلى سكره الواضح في عينيه... إلى يده اليمنى القابضة على كمشة الأوراق النقديّة... ثمّ بدأت تقترب منه رقصا... ألحّت عليه عيناه في أن تتركاها للحظة تخطف فيها سريعا كلّ الحسد المحيط به... كلّ العيون التي أخذت ترمقه شزرا... كلّ الأفواه التي فغرت... ثمّ سرعان ما عادتا تتملّيان التّفاصيل الدّقيقة للرّاقصة القادمة إليهما على مهل.

اقتربت الكارثة... ثلاث طاولات... طاولتان... طاولة واحدة... وأصبح كلّ شيء بين يديه : الوجه السّاحر القمريّ والشّعر المهياف الفضيّ والشّفتان المكتنزتان... والعطر الممزوج بالعرق وبالشّهوة، واللّحم الأبيض المختلج...

وقف قبالتها... وبدأت يده تغرس الأوراق بين نهديها... أعلاهما... تحتهما... فوق سرّتها... ورقة...

ورقتان... ثلاث... ستّ ورقات... سبع ورقات... كلّ الورقات المتبّقية... قبلة على الملإ يصفّق لها الجمهور...

الرّقص... كلّ الرّقص له وحده... ثمّ تنسحب من بين يديه الرّاقصة ويعود إلى القوارير يفرغها في بطنه الملآنة المتدلّية...

تهمي القوارير فوق الطّاولة وتنسكب في الأجواف فتّتسع العيون وتحمرّ وترتعش الأطراف وتدور الرّؤوس وتدور الرّاقصة وتمتلئ ساحة نهديها بالأوراق الماليّة... وتدور عقارب اللّيل... وتبدأ ساعات اليوم الجديد تلوح.

لم يحبّ اللّيل كما أحّبه تلك الأيّام.

"دنيا" حبّبت إليه اللّيل و جعلته ينتظر مقدمه على عجل وحبّبت إليه حانة وسط المدينة فأصبح يتعمّد أن يمرّ أمامها حتّي في أوقات ذهابه إلى العمل ورجوعه منه. ولم يعد يهمّه أن يكون مرفوقا

بأصـدقائه أو وحيـدا لـيس معـه غيـر لهفتـه ولهاثـه وأوراقــه النقديّــة وشــفتيه المتحفّــزتين للقــوارير وللقبل.

لم يعد يهمّه أن تقول المدينة كلّها إنّ السـيّد الفاهم تخلّى عن وقاره وأصبح يسهر كـلّ ليلـة بـين السّكارى يغرس الأوراق النقديّة بـين نهـدي راقصـة لعوب ويظلّ ينتظر ساعات الصّباح الأولى ليفوز منهـا وهي تلملم أثوابها وتهـمّ بالانسـحاب بقبلـة متعبـة ونظرة زائغة وكلام مجاملة لا طعم له.

لم يعد يهتمّ لشئ.

ما يهمّه حقا أنّه أصبح مـدمنا علـى "دنيـا". لا يبرح مرقصها ليلا ولا يغيب عنه طيفها نهارا.

كلّمتــه زوجتــه : لومـا و توبيخـا و سـخرية ثـمّ رجاء و أملا و توسّـلا.

وكلّمه جيران له وأصدقاء وزملاء. كلّمـوه سـرّا وجهرا.

كلّموه تهديدا وتأنيبا ثمّ لطفا ولينا. لم يراوغ أحدا وقال إنّه يحبّ دنيـــــا وإنّه لا يشكّ في أنّ دنيا ستحبّه يوما... وقال إنّه يحسّها قدره الذي كان مختبئا ثمّ فجأة ظهر له.

عندما سمحت له ذات ليلة أن يتحدّث إليها بمقابل على انفراد، طلب شيئا واحدا، طلب صورتها. وقال إنّ لديه طلبات أخرى ولكنّه لا يودّ أن يتقدّم بها دفعة واحدة.

- لم يتجرّأ قبلك أحد على طلب صورتي. وما كنت لأعطيها لو طلبها غيرك.

قالت ذلك ومدّتها إليه وتركته يقبّل الصّورة ويقبّلها ويدسّ بين نهديها ما بقي في جيبه من أوراق نقديّة ثمّ مضت... ومضى.

أصبحت دنيا له. ترقص له ليلا وتتربّع في حجره نهارا... يكلّمها وتكلّمه، يقبّلها وتقبّله، يداعبها وينظر في عينيها وتقاسمه الفراش.

قالـت زوجتــه عنــدما اكتشــفت صـورة الرّاقصـة مكبّرة إنّ زوجها جنّ... وقال الذين اشـتكته إلـيهم إنّ مرض دنيا الذي أصاب "الفاهم" مرض لا خطورة فيـه وإنّ كثيرين أصيبوا به ثمّ شـفوا منه... وقال "الفاهم" إنّه ليس مريضا وإنّه لم يــجنّ وإنّه لا يريد أن يتـدخّل في أمره أحد.

بينه وبـين نفســه، كـان يـدرك أنّ وقـاره وهـدوءه سـيعودان إليه بمجرّد أن تتاح لـه فرصـة امـتلاك دنيـا بين يديه. صحيح أنّه قبّلها وأنها رقصت له و أنّه انفرد بها... وأنّها تركتـه يأكـل لحمهـا بعينيـه... ولكـنّ ذلـك كلّه لم يطفئ اللّهيب المتأجّج فيه.

قال لها :

- يا "دنيا" لقد نفد صبري.

فردّت عليه :

- ألم أعطـك صـورتي ؟ صـورتي التـي لـم أعطهـا أحدا غيرك ؟

- أعطيتني صورتك ولكنّي أريدك أنت.

ووعدته خيرا... وأصبح يعيش في انتظار الموعد.

- يا "دنيا" متى موعدنا ؟
- الجمعة القادم موعدنا، سنسافر سويّا إلى العاصمة، أزور والديّ... ندفع لهما معاليم ومصاريف حجّهما... ونعود...

قبل ذلك اليوم، لم يعر الفاهم الموت اهتماما و لم يخفه. لم يخفه عندما مرض واعتلّ ولم يخفه عندما ركب الطّائرة لأوّل مرّة ولم يخفه عندما داهمت سيّارة سيّارته وكادتا تصطدمان. اليوم فقط، خاف أن يموت. خاف أن تقتله الفرحة.

سحب آخر ما لديه من أموال مدّخرة... اشترى بدلة جديدة أخرى... وملابس داخليّة جديدة... وأصلح من شأن السّيّارة... وظلّ ينتظر.

- يا "دنيا" متى موعدنا ؟
- الجمعة القادم موعدنا.

وجـاء الجمعـة... وانطلـق بسـيّارته قبـل الوقـت بسـاعة.

عندما اقترب من النّـزل رأى دنيـا. رآهـا تركـب سـيّارة أخرى وتغلق وراءها الباب بعنف.

- يا دنيا متى موعدنا ؟

- الجمعة القادم موعدنا.

ويـأتي يـوم الجمعـة...ويأتيهـا بسّـيارته قبـل الوقت بسـاعتين فـلا يجـد لهـا أثـرا. مغلقـة غرفتهـا. مغلق جوّالها. مغلقة كلّ الدّنيا في عينيه.

قال له أصحابه :

- دعك منها. اهرب منها بجلدك.

فردّ عليهم :

- سأقتلها. لن يعوّضني عن وقاري الـذي ضـيّعته ولا حسـابي الـذي أفرغتـه ولا مواعيـدها الكاذبـة التـي ذبحتني بها غير قتلها.

عندما هيّأ نفسه للمرّة العاشرة وذهب إليها ورآها تركب سيّارة أخرى قررّ أن يقتلها. رجع إلى البيت وأخرج الصّورة المكبّرة وأخذ بندقيّة الصّيد... وضع الغابة نصب قدميه، وأخذ يسرع في اتّجاهها... عندما وصل، علّق دنيا على جذع شجرة الصّنوبر وأطلق عليها النّار.

قال : إذا تردّدت لن أقتلها... يجب أن أقتلها حالما أصل... وقتلها.

استقرّت الرّصاصة بين نهديها، وفار الدّم... وبدأ يجري... جرى من نهديها إلى قدميها إلى قدميه وبدأ يكوّن جداول وبركا صغيرة سوداء في لون القطران....

مسح "الفاهم" عرقه وغطّى الجداول السّوداء والبرك بأغصان الكاليبتوس وحفر لدنيا الغارقة في دمها قبرا... وانطلق عائدا إلى المدينة.

في اللّيل، لم يستطع أن يقاوم رغبته في أن يرى حال الحانة ومرقصها من دونها... تأنّق وتعطّر واتّجه إليها. كان الحزن يلفّ النّزل والحانة والمرقص وأصحابها وروّادها وكانت الفرقة الموسيقيّة تعزف لحنا جنائزيّا خافتا ومخيفا. كان الحزن في قوارير البيرة وفي لفائف التّبغ وفي أعين الحرفاء وفي أصحاب المحلّ ولم يكن أحد يتكلّم. كلّ كان يمسك قارورته ويشرب في صمت.

جذب كرسيّا وجلس وسط أصحابه وبدأ يشرب ساكتا.

همسوا له :

- ماتت دنيا.

سأل كأنّه لا يعرف :

- كيف ماتت ؟ من قتلها ؟

- لم يقتلها أحد .حريفها "الكبير"الذي اصطحبها هـذا الصّـباح كـان يسـوق وهـو يـداعبها... انقلبـت بهمـا السّيارة وماتا معا.

لم يقل "الفاهم" شيئا ولم يفهم أصحابه سرّ برودة ولكنّه نهض... أسكت موسـيقى الحـزن... أمـر رئيس الفرقة أن يعزف ألحان اللّيالي الماضية... وبـدأ يرقص... التفّ حولـه أصـحابه وبـدؤوا يرقصـون والتـفّ حـول أصـحابه كـلّ الـذين فـي الحانـة... وتواصـلت الموسـيقى... وتواصل الرّقص.

صدفة آخر اللّيل

قالت له :

- ليس من عادتك أن ترابط في البيت إلى أوان العصر.

ردّ عليها :

- هل يقلقك ذلك ؟
- لا. لم يعد هناك ما يقلقني. أنا الآن ذاهبة في زيارة مجاملة. صديقة لي أنجبت بعد سنوات عجاف. سأزورها وأهنّئها و أردّ لها جميلا من جمائلها.

- أنا أيضا خارج اللّحظة. سيستضيفنا صديق جديد على مفاجأة كبرى.

وخرجا معا. هو حليق الوجه معطّر وأنيق كعادته، وهي بفستان أزرق في لون السّماء شفّاف وقصير وبشعر أصفر كشعاع القمر منساب على الظّهر والكتفين وبماكياج خفيف هادئ ومثير. وصلا إلى محطّة الحافلات بعد دقائق من المشي السّريع الصّامت.

- سأركب أوّل تاكسي تأتي شاغرة.
- إلى أين تقصدين بالضّبط ؟
- إلى حيّ ابن خلدون.
- أنا أيضا متّجه إلى هناك. صديقاي جلال وجمال قادمان في سيّارة أحدهما. تعالي نركبك معنا.
- لا. شكرا. ها هي تاكسي قادمة.

ركبت حنان التّاكسي وركب سعيد بعدها سيّارة صاحبيه...

طرقت حنان الباب الأسود العريض ففتح لها صاحب الدّار وسحبها من يدها إلى الدّاخل وهو لا ينفكّ عبر الممرّ الطّويل يعتصر كتفيها ويقبّل شفتيها وحنّاء كفيّها وشعرها المنسدل على رقبتها وخديّها.

قال لها وهو يضع في إصبعها خاتما ذهبيّا وتحت عينيها قارورة عطر مستورد وفوق ركبتيها ملابس داخليّة حريريّة ناعمة اشتراها هذا الصّباح من مغازة تبيع أثوابا إيطاليّة.

- سيزورني بعد حين ثلاثة أصدقاء مهذّبون. حدّثتهم عنك فألحّوا عليّ وأخجلوني وانتزعوا منّي وعدا بأن أدعهم يرونك ويحيّونك ويسمعونك تردّين على تحيّتهم.

وزقزق الباب.

كانوا ثلاثة. جمعهم ركنهم المحبوب بحانتهم حانة الأصدقاء التي أخذت منهم ما لا يقلّ عن نصف ما فات من أعمارهم. الوقت آخر اللّيل والحانة غارقة

في الصّخب وفـي سـحب التّبـغ وفـي أضـواء باهتـة بدت تغالب تثاؤبها وتجهد نفسها في مراقبة الحرفاء السّكارى. نظر طويلا إلى ثلاثة مـازالوا يقبعـون فـي ركن من أركان الحانة فعرف فيهم بعد تحديق شـديد صديقه "جلال" الذي لم يره ولم يجلس إليه منـذ مـا يزيد عن الشّـهرين.

سلّم عليهم فرحّبوا به وأوسعوا له بينهم مكانا وطلبـوا لـه بيـرة بـاردة وفـولا سـاخنا ووضـعوا بـين شفتيه سيجارة...

انطلق عمّار يحكـي للثّلاثـة عـن مغامراتـه مـع الجمـيلات والجماعـة يلجّـون فـي الضّـحك ويلحّـون عليه ليزيدهم من حديثه الّذي لا يملّ.

- هل أحدّثكم أيضا عن آخر جميلة وقعت بين يـديّ بعـد مـا سـاقها إلـيّ الهـاتف الجـوّال ؟ لـن يكفـيكم أن أحـدّثكم عنهـا ولـن أسـتطيع أن أوفيهـا حقّهـا ولـو بـتّ أصفها لكم مائة ليلة وليلة.

قال الثّلاثة في آن :

- شوّقتنا وأسلت لعابنا وقتلت البقيّة الباقية من صبرنا.

وطلبوا له قوارير أخرى ووضعوا أمامه سجائرهم الأخيرة.

- ليس كجمالها جمال ولا كطغيان أنوثتها طغيان. اصطادتني بهاتفها الجوّال فوقعت في شباكها من أوّل مرّة وواقعتها من أوّل لقاء ووقّعنا معا عقد شراكة طويل الأمد. أعدكم أنّني سأدعكم ترونها يوما ولو من بعيد.

- اللّيلة. نريد أن نراها اللّيلة. الآن. قبل أن ينبلج الصّبح. نراها فقط.

- سأرتّب معها موعدا. وسأنتظركم غدا مع آذان العصر. سلِّموا عليها وانظروا إليها ثمّ تعالوا انتظروني هنا إلى أن ألحق بكم.

- اتّفقنا.

وجاء النّادل يطلب من الجماعة أن يدفعوا ما عليهم ويتركوا الحانة فقد فات أوان غلقها وقرب طلوع اليوم الجديد.

نهض الثّلاثة : جلال يدحرج أمامه كرشه المتدليّة وجمال يسحب ساقه العرجاء ويثبّت بين اللّحظة واللّحظة نظّاراته الطّبيّة على عينيه الضّيّقتين وسعيد يسوّي شعره وثيابه محاولا كعادته دائما أن يبدو أنيقا ومقبولا.

***

قفز عمّار إلى الباب وهو يؤكّد لزائرته أنّ المسألة لن تتعدّى دقيقتين. رحّب بصاحبه القديم وبصاحبي البارحة ثمّ أدخلهم وهو يوصيهم أن لا يتجاوزوا مع ضيفته السّلام السّريع والنّظر الخاطف.

أطفؤوا هواتفهم وسوّوا شعور رؤوسهم ورتّبوا ملابسهم ثمّ دخلوا خاشعين... تقدّم عمّار الجماعة يهيّئ صاحبته لسلام أصحابه وكلامهم ثمّ دخل

جلال يدحرج كرشه الكبيرة ويبتسم... سلّم وحوقل وقال رافعا يديه إلى السّقف : "ربّ أنعمت فزد"... ودخل جمال يسحب في بطء ساقه العرجاء ويضحك فسلّم وتمتم واستعاذ بالله من الشّيطان وقال لصاحبه : "اللّهمّ لا حسد"... ثمّ دخل سعيد يشدّ بيديه حزام سرواله ويبلّل بلسانه شفتيه اليابستين على الدّوام...

نظر إليها...

نظرت إليه...

نظر إلى الخاتم الجديد في خنصر يدها اليسرى، إلى قارورة العطر في حجرها، إلى الملابس الحريريّة النّاعمة المكدّسة فوق ركبتيها، إلى عينيها المطمئنّتين الثّابتتين...

قالت لمضيّفها :

- لماذا لا يسلّم صاحبك الثّالث ولا يتكلّم ؟ أخشى أن لا نكون قد أعجبناه ؟

تكلّم صاحباه بدلا عنه وهما يمدّان إلى يدها يده :

- هو أوّل من ألحّ على أن نراك. يجب أن لا تؤاخذيه على صمته وشروده. "سعيد" أكثرنا ضعفا أمام النّساء الجميلات.

وبدؤوا ينسحبون.

قال جمال لعمّار وهو يمصّ ريقه ويتّجه إلى الباب :

- سنبقى في انتظارك حتّى لو جئت آخر اللّيل لتحكي لنا تفاصيل ضيفتك وتفاصيل سهرتك معها.

وقال جلال وهو يزمّ شفتيه ويقفو أثر صاحبه :

- سأظلّ طوال اللّيل أسكر وأدعو لك الله من كلّ قلبي أن يشدّ أزرك ولا يتخلّى عنك.

وقال سعيد و هو يتبعهما متثاقلا :

- هذه هبة الله إليك، لا تحدّث بها غيرنا حتّى لا يشيع أمرها وينافسك فيها المنافسون.

و ضمّهم بعد نصف ساعة ركنهم المحبـوب بحانـة الأصدقاء ولم يلحق بهم رابعهم إلاّ بعد منتصف اللّيل بقليل.

القرار الأخير

استلقى على سريره وأشعل سيجارة وشرع يدخّن ببطء ويتابع بانتباه سحب الدّخان وهي تصّاعد وتتلوّى وتتقارب وتتباعد وتتلاشى. اليوم يوم القرار الأخير. يوم الخطوة الأولى نحو الحلّ الذّي سيبعثه شخصا جديدا يحيا ويرزق ويحبّ ويكره وله شأن...

لا يذكر كيف جاءته الفكرة أوّل مرّة ثمّ ألحّت عليه واستقرّت فيه ولكنّه يذكر أنّه بدأ يشعر منذ

ذلك الوقت بارتياح شديد وبدأ يحسّ أنّه سيصبح لحياته معنى. وقف إلى جانبه إخوته إلى أن نال شهادته وتولّى مصاريف قهوته وسجائره أبوه إلى أن فارق الدّنيا وأصبحت بعد ذلك تؤويه المقاهي الرّخيصة وأرصفة الشّوارع وبؤر تعاطي الكحول يصرف فيها ما يجنيه أيّاما في الشّهر من أعماله المتقطّعة في الحظائر وفي أشغال البناء وما يناله من صدقات المشفقين.

قال لمسؤولين كثيرين مشافهة وفي رسائله إليهم : "إنّكم تدفعون بي إلى الموت قبل الأجل وتصرّون على إهدار طاقتي وعلى قتلي عرقا عرقا وإحراق دمي كريّة تلو أخرى..."

فردّوا عليه بابتسامات باهتة وبوعود كثيرة وقيل له : "اصبر وصابر. إنّك تحت أعيننا. فقط رجاء ذكّرنا من حين لحين حتّى لا ننساك في غمرة انشغالنا بالمطالب الكثيرة وقضايا المصلحة العامّة وما ضاع حقّ وراءه طالب".

عندما طال انتظاره وأحسّ أنّه يسير في طريق مسدودة وأدرك أنّه لن يحكّ جلده مثل ظفره وأنّه لا يحسّ الجمرة إلاّ من يمسكها، لم يعد يخاطب المسؤولين ولم يعد يكتب إليهم رسائل وشكاوي وبدأ يفكّر في حلّ ينقله من حياة الحظائر وأشغال البناء وأقبية الكحول وأرصفة الشّوارع إلى دنيا جديدة... إلى ما وراء البحر... إلى حيث يمكن أن يشتغل ويكدّس الأموال... إلى حيث يستطيع أن يأكل ويشرب ويلبس ويسوق السّيّارات ويصادق الفتيات ويحسّ أنّه بشر سويّ... عرض على إخوته مشروع الرّحيل وطلب منهم أن يساعدوه على أن يهجّ إلى حيث يمكن أن يجد الشّغل ويبدأ حياة أخرى فلاموه لوما شديدا وقال أكبرهم :

- أنت رجل حاصل على شهادة عليا. قليلا من الصّبر وستدعى أنت وأمثالك إلى وظائف تليق بكم وتنسيكم أعوام انتظاركم. قريبا ستتكاثر الشّغورات وقد لا نكتفي لسدّها بكم جميعا.

- سأهجّ الآن على أن أعود إليكم على أوّل طائرة بمجرّد ما يخبرني أحدكم أنّ دوري في الوظيفة جاء.

كانت تعلّة افتعلها إخوته ليتجنّبوا مصاريف سفر مجهول ومصاريف بداية حياة أخرى في بلد آخر... كثيرون هم الّذين ذهبوا إليه يحلمون بالمال والسّلطان والدّيار والسّيّارات والنّهود الفتيّة فعادوا منه في توابيت صفراء أو دخلوا سجونه لسنين طويلة أو ضمّتهم إليها فيه جماعات تزييف العملة وإدمان الحشيش وتعاطي الإرهاب...

أحسّ بعُقْب السّيجارة يحرق إصبعيه فانتفض قليلا ورماه إلى الخارج عبر الشّبّاك المفتوح أمامه على مصراعيه وعاد يشعل سيجارة أخرى ويحدّق في السّقف بعينين ميّتتين إلى أن سمع نقرا خفيفا على الباب فهبّ إليه يفتحه ويدخل أمامه صديقه "جابر" ويهيّئ له مكانا للجلوس.

- هل مازلت مصرّا على مشروعك الأخير ؟

- ذاك قراري الّذي لن أتخلّى عنه ولو تخلّيت أنت.
- أخاف أن لا تكون نتائجه مضمونة.
- لا أريدك أن تخاف. نفّذ ما اتّفقنا عليه... ولن نخسر كثيرا.

منذ أن اسّتقرّت فكرة المشروع في دمه ومحمود يتردّد على أقسام الاستعجالي وأقسام الجراحة والعظام بالمستشفيات يعاين ما فيها ويذهب إلى قاعات المحاكم يستمع فيها بتركيز شديد إلى مرافعات المحامين وأحكام القضاة في قضايا التّأمين والتّعويض ويسأل المتضرّرين وأهاليهم عن المبالغ الّتي نالوها وعن المدّة التي تستوجبها وعن الإجراءات اللاّزمة وعن الثّغرات التي يمكن استغلالها... عندما كوّن فكرة واضحة وأيقن أنّه بإمكانه أن ينال مبلغا يؤمّن له تذكرة السّفر ومصاريف بداية حياة جديدة، قال : "هذا قراري الأخير" وبدأ يخصّص من وقته وقتا لممارسة تمارين في الجري والقفز والانبطاح والارتماء...

قال صاحبه :

- ما رأيك أن نلتقي في الحانة قبل أن نلتقي في الطّريق ؟

فردّ عليه :

- لست في حاجة إلى أن أكتسب بالجعّة الشّجاعة على أن أبني حياتي الجديدة. قراري اتّخذته... ولكن، من أجلك... وحتّى لا تخونك الشّجاعة ويثنيك التّردّد... هيّا.

عندما خرجا من الحانة، بدا كلّ منهما أكثر استعدادا لمواجهة صاحبه وتنفيذ الخطّة... ركبا معا سيّارة جابر حتّى اقتربا من المستشفى... نزل محمود وترجّل ولحقت به بعد برهة سيّارة صاحبه... ثار الغبار والصّياح وكثر العويل واللّغط وجاء الخلق من كلّ فجّ يتدافعون ويملؤون الطّريق ويتحلّقون حول الرّجل الطّريح وحول دمه المهدور على الإسفلت و يسبّون السّائق وأمّه وأباه ويمسكونه

قبل أن يهرب ويسلّمونه إلى أعوان الشّرطة الّذين حلّوا سريعا في مكان الحادث لاهثين.

هامش أوّل :

لا يذكر الرّاوي أنّ هذه القصّة وقعت فعلا ولكنّه يذكر أنّه بعد أكثر من عام من نشرها في مجلّة عربيّة ممهورة باسمه و عنوانه الالكتروني، جاءته رسالة من قارئ يشكره فيها عليها ويدعوه إلى قضاء أيّام في ضيافته في "بالرمو" عرفانا له بالجميل.

هامش ثان :

بعدما نشرت هذه الأقصوصة بملحق ثقافيّ بجريدة ذائعة الصّيت وكثيرة الرّواج، تكاثرت حوادث مرور متشابهة في حيثيّاتها وفي نوعيّة إصاباتها ونسبة الضّرر فيها ولم تجد شركات التّأمين مهربا من دفع التّعويضات للمتضرّرين ولكنّها ظلّت تبحث وتحقّق في الأمر إلى أن وقفت على حقائق ثابتة فرفعت ضدّ كاتب الأقصوصة قضايا تتّهمه فيها

بالتّحريض على الموت وإهدار الرّأس المال البشريّ وبسرقة الأموال العموميّة.

هامش ثالث :

رمى أحد الشّبّان أسوة ببطل الأقصوصة نفسه تحت عجلات سيّارة قادمة في اتّجاهه على مهل ولكنّه توفيّ بعد نقله إلى المستشفى. قال لأهله وللطّبيب ولأعوان الأمن وهو يحتضر : قـ...تـ...ـلني الـ..كا.تب عبّـ. عبـّ.اس سلـ...ـيما..ان... فجيء بالكاتب المذكور إلى المحكمة... ولا يزال التّحقيق مستمرّا.

تصميم الغلاف
الإخراج الفني للكتاب
التحويل الإلكتروني
صالح مبروكي
(+216) 98 603 987
salehymabrouki@gmail.com

نصف السّاعة الأخير

قالت له :

- مازال أمامنا نصف ساعة آخر. ما رأيك لو نقتله في توديع الأهل والأصدقاء بالمكالمات والإرساليّات القصيرة. نسمع آخر أصواتهم ونشتمّ آخر روائحهم ونتمنّى عليهم أن يذكرونا بخير ؟
- كنت سأقترح ذلك. علينا فقط أن لا نستعمل جوّالينا في آن واحد حتّى يستطيع أن يتّصل بأحدنا الجماعة لو عنّ لهم الاتّصال لأمر ما.

قال عبد الحيّ ذلك وبدأ يكوّن الأرقام تباعا، أرقام بعض أهله وأصدقائه يحيّيهم ويسلّم عليهم ويسألهم في عجالة عن أحوالهم ويتمنّى لهم دوام العافية وطول العمر... ثمّ سكت عبد الحيّ وسكت جوّاله لتشرع في كتابة الإرساليّات وفي مخاطبة أهلها وأحبّتها خطيبته "حياة" التي خانتها شجاعتها وأجهشت بالبكاء بمجرّد ما اطمأنّت على من خاطبتهم وسمعت أنفاسهم وأصواتهم ودعاءهم وقبلاتهم.

وضع النّادل كأس عصير بارد أمامها وقهوة سوداء فاترة بين أصابع عبد الحيّ الذي أخرج آخر ما في جيبه من قطع نقديّة ومدّه ممتنّا إلى الشّاب الأسود النّحيف...

- ألم تشعر أنّ الوقت يمرّ بطيئا جدّا ؟
- دعيه يبطئ، لطالما مرّ سريعا كالبرق قبل اليوم.
- ألا نخرج لنتجوّل في السّوق ونختار لنا مكانين مناسبين قبل أن تزِف السّاعة ؟

- لا. السّوق يعجّ بالخلق من أوّله إلى آخره. ستكون مهمّتنا سهلة من أيّ نقطة فيه.

حوّلت "حياة" نظرها إلى النّافذة المفتوحة تطلّ من خلالها على الحركة التي بدأت تشتّد وعلى الخلق المتدافعين وعلى أكداس السّلع المبثوثة فوق الأرض و فوق الطّاولات وفوق العربات.

- كم أودّ لو ينتهي كلّ شيء بسرعة وبنجاح.
- سينتهي كلّ شيء بسرعة... ولكنّه لن يكون بإمكاننا أن نقدّر ما إذا كنّا نجحنا أم أخفقنا لأنّنا سنكون وقتها...
- لا. وأسرعت يدها إلى فمه. لا تقلها أرجوك. تعال نخرج إلى السّوق.

عبّ عبد الحيّ ما تبقّى من كأسه واقفا وتركت "حياة" كأسها نصف مملوءة... وقفزا نحو الخارج.

عروسان تعبق منهما رائحة العرس الأولى يخاصران بعضهما ويمصّان الآيس كريم ويضحكان...

رجل على عتبة الموت يمدّ يده إلى المارّة يطلب أيّام حياة أخرى فيما لسانه يلهج بالدّعاء لهم وعليهم... طفلان في عمر التّعلّم الإجباري المجّانيّ يقتسمان ناحية من نواحي السّوق ويذهب كلّ منهما في الاتّجاه المعاكس للآخر لبيع أكياسه البيضاء دون نزاع ولا منافسة. شابّ أنيق ببدلة وربطة عنق وجوّال في الحزام يختطف سلسلة ذهبيّة من رقبة سيّدة تسير ببطء بين أكداس السّلع وأمواج الخلق وعربات الباعة ويطلق روحه للرّيح... طفلان يمسكان بتلابيب أمّهما ويلحّان عليها لتشتري لهما حذاءين ريّاضيّين ولعبتين وقرطاسي لوز ملبّس بالحلوى... فتاة تغازل كهلا، تغمز له وتبتسم ثمّ تتعمّد أن تضع نفسها في طريقه فيصطدم بها و يعتذر لها... يتمتمان بكلام غير مسموع ثمّ يذوبان معا في الزّحام... حمّالون يجوبون السّوق وتجّار يشهرون بضائعهم ونساء يجادلن في الأسعار... أموال تدفع، وأموال تقبض...

أناس يجيئون.. أناس يذهبون... أكتاف تتدافع... أجسام تحتكّ... عرق يسيل... جيوب تسيل... هواتف جوّالة ترنّ هنا وهناك فتختلط نغماتها المختلفة بنداءات الباعة وأصوات الحمّالين وجدال الحرفاء... بعض من ترنّ هواتفهم يشرع في الهمس والوشوشة بحنان وخشوع فيما بعضهم الآخر يأخذ في الزّعيق والسّبّ والشّتم والأوامر والنّواهي.

- أحسّ أنّي أختنق.
- سينتهي اختناقك بعد قليل. قليلا من الصّبر وينتهي كلّ شيء.
- ألا يراودك بين الحين والحين إحساس بالنّدم ؟ ألا تشعر أنّنا تسرّعنا وأنّنا سنهدر ببلاهة عمرينا وأعمار مئات آخرين لا ذنب ارتكبوه سوى أنّ دوافع مختلفة جاءت بهم هذا الصّباح إلى سوق الجمعة ؟

- أرجوك، هذا حديث فات أوانه. لا أحد أجبرنا على أن نتطوّع.
- وهؤلاء ؟ هؤلاء الذين يعبّؤون قفافهم والذين يعبّؤون جيوبهم والذين يلحسون الآيس كريم والذين يوشوشون في أرواحهم الجوّالة... الماسكون بصدور أمّهاتهم والماسكون بأيادي نسائهم... ما ذنب كلّ واحد منهم بل ما ذنبنا نحن أصلا ؟
- من أدراك أنّنا لن نريحهم بعد قليل من هموم كثيرة ؟
- هراء.
- ليكن. المهمّ أنّه لم يعد أمامنا ما نفعله سوى أن نمضي في ما جئنا لأجله.
- النّدم ينهشني.
- لا تكوني جبانة.
- الجبن ما سنفعله.
- أنت تهذين.

- انتبه. هاتفك الجوّال يرنّ.
- آلو.
- انتبه يا سيّد عبد الحيّ إلى الوقت. أنتما الآن على عتبة الموعد.
- بلّغ سلامنا إلى الجماعة ولا تنسوا اتّفاقنا بأن يلحق بنا منكم باستمرار أبطال آخرون.
- اطمئنّ. كيف حال حياة ؟
- بخير. هي تسلّم عليكم وتعدكم بعمل هائل ستصلكم أخباره بعد قليل.
- عليكما الآن أن تبتعدا عن بعضكما. ليذهب كلّ منكما في الاتّجاه المعاكس للآخر. لم يعد أمامكما متّسع من الوقت.
- وداعا.
- وداعا عبد الحيّ.

اقترب عبد الحيّ من خطيبته يهمس لها بما دار بينه وبين زعيم الجماعة...

كانت في عينيه دموع وفي حنجرته غصّة وفي صوته بحّة ورعشة...

اقترب منها حتّى التصق بها وخاطبها بصوت خفيض :

- الجماعة يقرؤوننا السّلام ويأمروننا أن لا نقف في مكان واحد. قفي إن شئت هنا. عندما أصل إلى قلب السّوق، ستصلك منّي إشارة، عندها أوصلي العازل بمكانه وثبّتيه جيّدا وتوكّلي على الله.

لم تفهم "حياة" ممّا قاله لها الرّجل الغريب شيئا ولكنّ إحساسا بالرّعب سرى في كلّ بدنها وجعلها قاب قوس من الشّلل... أومأت برأسها دون أن ترفعه إليه أن نعم... تركته يبتعد ثمّ حرّكت عينيها في أعقابه... دار بذهنها أن تصيح وتجمع حولها النّاس وتنبّههم إلى أنّ رجلا طويل القامة ضعيف البدن يلبس سترة خضراء ويغطّي عينيه بنظّارات بنيّة سيقيم خلال لحظات قيامتهم... ودار بذهنها أن

تستعمل هاتفها لطلب نجدة رجال الأمن والحماية... ثمّ التقطت عيناها عوني شرطة يمسكان بشابّ عرف بارتياده سوق الجمعة لسرقة تجّاره وحرفائه... اتّجهت إليهما... وقفت قبالتهما... لم تقل شيئا... وإنّما شرعت في فكّ أزرار قميصها... أطلّ نهداها فتراقصت فوقهما وحولهما عيون العونين الأربعة... ثمّ كشفت بقيّة الأزرار عن حزام عريض مجهّز يحيط بخصرها... تراجع العونان... وحلّ محلّ الشّهوة في عينيهما الرّعب والارتباك.

نزعت حياة الحزام و مدّته إليهما ثمّ قالت لهما : اتبعاني...

في المساء، عرضت نشرة الأخبار صورا لعبد الحيّ وخطيبته حياة. كانت حياة تبتسم وتتحدّى بعينيها الخضراوين كاميروات الأنباء... وكان عبد الحيّ يشيح بوجهه عن المصوّر وينظر إلى "حياة" شزرا.

20- مارس- 9 أفريل

قال الجار الأيمن :

"رأيت لقمان آخر مرّة منذ يومين فقط. لحظت في عينيه ذبولا وفي وجهه صفرة كصفرة الاحتضار.

تحدّثنا باقتضاب عن آخر الأخبار وكان أكثر حديثه هذيانا وسبابا وشتائم."

***

وقال الجار الأيسر :

"كنّا مساء الأمس معا. التقينا وتبادلنا التّحيّة والسّلام. أحسست أنّ لدى "لقمان" كلاما كثيرا يريد أن يخرجه لأيّ كان ولكنّي كنت مستعجلا لقضاء شأن عائليّ. أشعر الآن بالنّدم لأنّني لم ألبّ رغبته في أن أستمع إليه"

***

وقال الجار الفوقيّ :

"زملائي في العمل يحسدونني لأنني أنعم بجيرة هذا الرّجل العملاق. كلّما رأوني قادما أسرعوا يتحلّقون حولي لأنقل إليهم رأيه فيما يجري وليردّدوا على مسمعي نفس السّؤال : ماذا يتوقّع السّيد لقمان : النصر أم الخيانة ؟"

لقمان يا سيّدي الرّئيس كان المظلّة التي أستظل بظلّها. لا أحد من رؤسائي كان يطالبني بالعمل أو يزعجه أمر تأخّـري وغياباتي.

لم يكونوا يطالبونني بغير أن أنقل إليهم ما قال... وكيف فسّر الأخبار".

***

وأقسمت الجارة السّفليّة أن لا تشهد بغير الحقّ ثمّ قالت :

"الآن وقد فارقنا "لقمان" إلى غير عود سأقول ما ظللت زمنا طويلا أكتمه حتّى عن نفسي. ولأنّني أؤمن أنّ لا حياء أمام هيئة المحكمة فسأصارحكم بأنّني أحببت "لقمان" أكثر من زوجي وأنّني تمنّيته لي وحدي ولم أحسد أحدا كما حسدت "سعيدة " زوجته عليه. كنت أشتري جريدة "صوت الحقّ" ولا أقرأ منها غير ركنه ولا أتأمّل فيها غير صورته.

رحمه الله. لقد كان صرحا فهوى".

***

وغلب البكاء صاحب كشك الجرائد المقابل لدار لقمان فاكتفى بأن قال :

"أكنّ للقمان محبّة خاصّة. موته فاجأني. صحيح أنّني تنبّهت إلى أنّه تغيّر كثيرا وأصبح غالب الوقت يسبّ ويشتم ويهذي وليس على لسانه غير كلمات السّمسرة والعار والنّفط والشّرف... ولكنّني لم أكن أتوقّع يا سيّدي أن يموت الآن".

***

وشهد نادل المقهى باكيا :

"لست أبالغ حين أقول لكم إنّ "مقهى النّصر" قد يغلق أبوابه تماما. أغلب روّاده كانوا يأتون ليستمعوا إلى "لقمان" ويتقرّبوا إليه ويطفئوا نيرانهم بكلامه. مساء الأمس، طلب قهوة سوداء بلا سكّر، رأيته يمسكها بأصابع مرتعشة ويرتشفها بعينين مغمضتين. كان كعادته يتحدّث إلى جلسائه الكثر... ولم أفهم من كلامه شيئا.

اللّهمّ ارحم "لقمان" وارزق امرأته وصاحب المقهى وقرّاءه وجريدته الصّبر والنّسيان".

***

وشهد أحد زملاء لقمان :

"كنّا نأكل الخبز من قلمه. صفحاتنا كنّا نملأها كيفما اتّفق... وكان يكفي أنّ الصّفحة المخصّصة له ستجلب القرّاء وستروّج الجريدة. موته سيقتلنا، يجب أن نصلّي جميعا من أجل أن يرزق الله الجريدة لقمانا آخر.

اللّهم ارحمه رحمة واسعة وارزقنا الصّبر على فراقه وعلى الهمّ الذي سيلحقنا من بعده".

***

وجاء في تقرير الطّبيب الشّرعيّ :

"فحصنا جثّة الصّحفي لقمان فلاحظنا أوّلا دما أسود خثرا على فمه ومنخريه ثمّ لجأنا إلى

التّشريح لمعرفة الأسباب الحقيقيّة للوفاة فأمكن لنا معاينة ما يلي :

" قلب المتوفّى منتفخ وبه كدمات زرقاء، ورغم أنّ القاعة كانت مكيّفة فقد لفت انتباهنا أنّ القلب كان حارّا كالجمر حتّى إنّنا كنّا نشمّ رائحة شياط..."

***

ولم يواصل السّيد المستشار قراءة بقيّة التّقرير، وشوش للرّئيس ببضع كلمات وطوى الورقة ثمّ أودعها ملفّا أحمر.

***

مات لقمان.

وجدته زوجته سعيدة ميّتا هذا الصّباح.

عندما نهضت ولم تره إلى جانبها على السّرير، خرجت تبحث عنه في المطبخ وفي الحمّام وفي كلّ غرف البيت وتحت أشجار الحديقة وفي مستودع السّيارة ثمّ عادت لاهثة

إلى غرفة النّوم تبحث عن جوّالها لتبحث به عنه... عندما دخلت الغرفة وأجالت بصرها في زواياها انتبهت إليه مكوّما تحت طرف السّرير... قلّبته فألفته صامتا باردا يابسا كتمثال قدّ من برد.

شيء ما سدّ حنجرتي فلم أبك ولم أصرخ ولم أولول ولم أشقّ جيبي ولم ألطم خدّي... فقط وقفت عند رأسه وجلست حذوه وتلمّست نبضه وتسمّعت قلبه وحاولت أن أنصت إلى تنفّسه ثمّ أسرعت أنادي بالهاتف قسم الشّرطة ومركز الإستعجالي وأهلي وأهله وأصدقاء مقرّبين ومدير جريدة "صوت الحقّ" وصحفيّيها.

البارحة استطعت رغم أنّني تناولت حبتيْ دواء منوّم أن أنتبه إلى أنّ زوجي بات يتقلّب ويزفر ويئنّ ويكوّر قبضته ويلوّح بها في الفضاء وأن أحسّ بساقيه ترتعشان وترتجفان وتصطكّان .توقّعت أنّه بعد حالاته تلك التي بدأت منذ أيّام تلازمه سيهدأ

وسينام ولكنّي فوجئت به في الصّباح ملقى على أرضيّة الغرفة ودم أسود خاثر يلطّخ وجهه.

منذ العشرين من مارس، بدأ لقمان يقترب من الموت خطوة تلو أخرى إلى أن أصبح هذا الصّباح جثّة يابسة. منذ العشرين من مارس وهو يضع رأسه في الجزيرة والجرائد وفمه في السّجائر والقهوة السّوداء ويده على قلبه حتّى لا يسقط ويسيل على الشّاشات دمه ثمّ يتحلّق حوله كلّ ذباب العالم.

لا أتّهم بقتله أحدا.

ولا أبرّئ من التّهمة أحدا.

اللّهمّ عوّضه أهلا خيرا من أهله وارزقه الصّبر و النّسيان.

***

وغطّى رئيس المحكمة ومستشاراه وجوههم بملفّات خضراء وحمراء وشرعوا في المداولة.

سبعة أيّام جديدة

اليوم الأوّل :

أدرك "احميدة" بمجرّد ما وقفت عيناه على الشّاطئ واختطفتا ما في الماء وما على الرّمل من لحم مختلج متناثر في وضعيّات عديدة أنّ وجود ابنته وزوجته إلى جانبه سيعيق متعته وسيشدّ عينيه إلى الأرض... اختار لهما ركنا من الشّاطئ قصيّا... أوصاهما بالحذر وبالخوف وتركهما إلى حيث اختار مكانا في قلب الشّاطئ... نزع "احميدة" جبّته ورفع سرواله إلى ما فوق الرّكبتين ثمّ بدأ يخطو نحو الماء الأزرق... أنعشته البرودة فتقدّم خطوات أخرى

إلى أن أحسّ أنّ قدميه بدأتا تهتزّان وترتفعان فأخذ يعود أدراجه وهو يفرك بدنه بكلتا يديه حتّى يسمح للماء المالح أن يعبر كلّ مسامّ جلده وينعش خلاياه ويخلّصه من أدران ستّين عاما قضاها في ريفه الصّحراوي البعيد.

توسّد "احميدة "جبّته وشعر وهو يستلقي على الرّمل البارد براحة لم يذق لطعمها مثيلا. تمدّد على ظهره ثمّ على بطنه ثمّ على جنبه ثمّ اتّكأ على مرفقه وتظاهر بالنّوم تاركا لعينيه شبه المغمضتين العنان لمتابعة جمال اللّحم العاري إلاّ من بعض القطع الملوّنة الخفيفة التي زادها التصاقها بالأبدان المبلّلة سحرا... تابعت عيناه اللّحم في الماء... وعلى الرّمل... واجتهدتا في أن تميّزا بين اللّحم العربي واللّحوم الأخرى الوافدة من أصقاع بعيدة... وشعر "احميدة" أنّه لن يرضي فضوله وما استفاق فيه من جوع بعينين شبه مغمضتين ففتحهما عن آخرهما وتركهما تتخبّطان

بين الماء والرّمل... ومع تكاثر الوافدين والوافدات على الشّاطئ، جنّ وجنّت عيناه وركبته خشية من أن يفتضح أمره وينادي مناد :

- أبعدوا عن هذا المكان هذا الشّيخ المتصابي الذي أزعج راحة فتياتنا ونسائنا بعينيه الثّاقبتين المتفحّصتين لكلّ شيء".

على عجل نهض "احميدة"، حمل تحت إبطه جبّته البيضاء وشاشيّته الحمراء وتوجّه إلى حيث ترك سالمة وأمّها.

في الطّريق إليهما، تعثّر مرارا وكاد أكثر من مرّة يسقط... كان فمه مفتوحا عن آخره وكانت عيناه الضيّقتان تنطّان كفراشتين وتجتهدان في أن تلتقطا كلّ اللّحم المبثوث حولهما...

اليوم السّادس :

أنا لن أظلّ تحت رحمة "زياد" أنتظر أن يمنّ عليّ بعد كل سبعة أيّام بمبلغ لا يشبع حتّى هاتفي الجوّال. أنا اليوم واحد آخر. شخص جديد.

تلزمني اليوم ملابس أخرى جديدة وبطاقات للهاتف وسجائر فاخرة وجلسات في المقاهي والحانات وهدايا أجود بها على من أتوسّم فيها ميلا إليّ.

لن يكفي لشيء ما يجود به "زياد" مرّة واحدة في الأسبوع وليس لديّ دخل اتّكئ عليه... ولكنّي أمتلك في ريفي البعيد دارا كبيرة لن أكون في حاجة إليها ونصيبا من الأرض والزّيتون سيفتكّه إخوتي إن لم أبعه. سأعود... وسأبيع الدّار... وسأفوّت في الأرض والزّيتون لأوّل راغب وسأقطع كلّ صلة لي بتلك البقعة من جهنّم وسأبدأ حياة جديدة... سأصبح واحدا آخر. أليس من حقّي وقد اكتشفت أخيرا حياة غير التي كنت أحيا أن أغيّر لوني وأبدّل رأسي وأصبح شخصا جديدا ؟

اليوم الثّالث :

لزمت أمّي الصّمت عندما تخلّى أبي عن الجبّة التي لازمته إلى أن بلغ السّتين عاما، ولم تقل شيئا عندما استبدل السّروال "بالشّورط" والمظلّة

بـ"الشّابو" و"النفّة" بالسّيجارة ووضع على عينيــه نظّارات شمسيّة... لم تقل أمّي شيئا... ولم يفـــعل "زياد" أخي شيئا سوى أن رفع من المبلغ الأسبوعيّ الذي كان يخصّصه لوالدي واكتفيت أنا بأن أصبحت أسترق النّظر إلى أبي الجديد وأبتسم خلسة... ولكنّ ما حدث اليوم جعل أمّي تصرخ وتولول وتبكي... ولولت أمّي اليوم وصرخت وبكت عندما عاد إليها أبي من قاعة الحلاّق برأس جديد سوّدته الأصباغ ومحت كلّ أثر للشّيب فيه وبوجه أملط لا أثر فيه لشاربه الكثيف الذي كان مضرب أمثال أهل قريتنا البعيدة.

اللّهم اهد أبي واشرح صدره لآداب الشّيخوخة وارزقنا الصّبر والنّسيان.

اليوم الثّاني :

هذه الأكفان التي لفّتني طيلة ستّين عاما لن أضعها بعد اليوم... هاتان العينان اللّتان غضضتهما عن كلّ مباهج الدّنيا حتّى ضاقتا ولم تعودا قادرتين

على الالتقاط السّريع الواضح لن أحدّ من حرّيتها بعد اليوم... فاطمة التي كنت أحسبها أجمل نساء العالم لن ألتفت إليها بعد الآن... سأصبح منذ الآن شخصا آخر... شخصا جديدا لا عهد له بما كان عليه طيــلة ستّين عاما مضـــت... بدل السّروال سأرتدي "شـورطا" و بدل الجبّة لن ألبس شيئا... سأدع صدري يتنفّس هواء البحر ونسائم المدينة... وبـدل المظلّة هاهو "شابّو" في لون البحر سيعطي لرأسي شكلا جديدا ولونا جديدا ودماء جديدة... وبدل "حكّة النفّة" سأشتري سجائر فاخرة... واتّقاء للشّمس وضمانا لسرّيّة الّنظرات سأغطّي عينيّ بنظاّرات شمسّية...

اليوم الخامس :

مضى من اللّيل أكثره ومللنا الانتظار فوقفنا أمام الباب الخارجيّ نتطلّع إلى الغادين والرّائحين نبحث بينهم عن شيخ في السّتين شعره أسود وشاربه حليق يلبس شورطا ويمسك بإحدى يديه

"شابّو" ويتّجه إلينا. كانت أمّي تتمتم بأدعية وأسماء وتعاويذ وكانت أختي سالمة تلطم خدّيها وفخذيها وتشهق وتزفر وتتنهّد وكنت أطمئن الإثنتين وأقسم لهما أنّ أبي سيعود... توقّفت سيّارة أمن وأنزلته ومضت... تلقّفناه وأسندناه على أكتافنا فنظر إلينا بعينين حمراوين متعبتين وقهقه عاليا وضحك طويلا ثمّ أبعدنا وتحامل على نفسه ليتّجه بمفرده إلى الدّاخل. أخرجت لنا ضحكته الطّويلة رائحة جديدة غريبة حدسنا جميعا بلا اجتهاد كبير أنّها رائحة خمرة...

نمنا ونام أبي وفي الصّباح لم نعثر له على أثر.

اليوم الرّابع :

قال لزياد صديقه :

بالأمس رأيت أباك "احميدة" ينطّ في شوارع المدينة كفراشة. كلّما لمح جسما أنثويا إلاّ وتعقّبه أو اعترضه أو تجاوزه والتفت إليه... سمعت نساء

يشتمنه... ورأيت فتيات يشفقن عليه ويبتسمن له... وحلت مرّتين بينه وبين رجال كانوا يهمّون بتأديبه.

عد به يا زياد إلى ريفكم الصّحراوي البعيد... أخشى أن تكون قد أسأت من حيث كنت تحسب أنّك أحسنت إلى أبيك والعائلة يوم جئت بهم إلى المدينة ليؤنسوك ويجتمع الشّمل.

اليوم السّابع :

جاءنا مع منتصف النّهار هاتف من بعيد... هاتف ممزوج بروائح الخوف والحبّ والدّهشة.

قال أعمامي لأمّي :

- جاءنا اليوم أخونا "احميدة" يعرض علينا وعلى أهل القرية من بعدنا شراء داركم الكبيرة وإرثه من الأرض والزّيتون. هل أنتم راغبون فعلا في البيع ومتّفقون عليه ؟

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

أنا وهي واللّيل

كنت على وشك الانتهاء من حلاقة ذقني عندما سمعت الخادمة تستأذن للخروج وتؤكّد أنّها جهّزت الأكل ونظّفت البيت ورتّبته وتُذكّر أنّها لن تعود إليّ قبل ثلاثة أيّام أخرى.

- شكرا. شكرا. رددت عليها...

ثمّ ذهبت أتفقّد بنفسي الأكل الذي طـــبخته والشّراب الذي وضعته على المائدة وأراقب نظافة الغرف والممرّات وحتّى النّوافذ والأبواب.

جاءني عبر الهاتف صوت السيّدة "كاميليا" يحيّيني ويسألني :

- هي جاهزة في انتظارك. تعال توّا لتعود بها إلى بيتك.

ثمّ ضاحكة :

- أم تريد أن أوصلها إليك بنفسي ؟

أعجبتني الفكرة وراق لي أن أرابط في البيت لا أبرحه في انتظار أن تتطوّع جارتي وتأتيني بها.

قلت :

- سيشرّفني كثيرا حضورك معها. اصطحبيها معك وستجدينني في انتظارك.

قلت ذلك و هببت إلى النّافذة أطلّ عبرها على الشّارع أترقّب ظهور سيّارة جارتي... سيّارة... اثنتان... درّاجة... سيّارة أخرى... لا شيء لمدّة خمس دقائق... سيّارة حمراء طويلة قديمة... سيّارة زرقاء في لون سماء زاهية... سيّارات أخرى... ثمّ أطلّت تتهادى سيّارة جارتي. سلّمت عليّ

"كاميليا" وهنّأتني وأحطنا معا برفيقتي الجديدة وأدخلناها سويّا إلى البيت.

- لا داعي لوجودي الآن سيّد " كمال". أتمنّى لك ليلة سعيدة.

لم تبد رفيقتي الجديدة أيّ حراك ولم يصدر عنها أيّ صوت. مددت يدي وكشفت عن وجهها وتأمّلته فألفيته صامتا لا ينبئ بخجل ولا فرح ولا خوف... أخذتها بين ذراعيّ ووضعتها في مكانها المفترض من سريرها فبدأ يزايلها الصــّمت وافترّت شفتاها عن ابتسامات قصيرة خجلى.

- ستأكلين معي ؟
- لا أستطيع. كل هنيئا.

كنت جائعا فوقعت على الأطباق أفرغها بنهم في جوفي وعيناي لا تبرحان رفيقتي الجديدة. كنت أضحك لها فتضحك لي وكانت تغمز لي فأغمز لها... كانت كلّما مرّ الوقت انطلقت أساريرها وكثر ضحكها

وتناسلت أخبارها وحكاياتها... ثمّ عنّ لي أن أطلب طلبا ما كنت أحسب أنّها ستجيبني إليه بسهولة.

- هل لي بشيء من الرّقص الشّرقي المثير ؟

قلت ستعتذر متعلّلة بالخجل... أو بالتّعب... أو ستقسم بأغلظ الأيمان أنّها لم ترقص قبل اليوم قطّ وأنّها لا تعرف إلى هذا الفنّ سبيلا، ولكنّها، وكأنّها كانت تنتظر طلبي... كأنّها كانت ترغب هي الأخرى في أن ترقص، قامت وبدأت تتلوّى... وتتمايل... تنحني وتقوم... تقوم وتنحني ... تتمدّد... ثمّ تهبّ واقفة... ترقص، ترقص... ثمّ تعود لتتمدّد من جديد... إلى أن أعياها التّعب... وتصبّب غزيرا منها العرق، ففكّت الحزام وعادت إلى جلستها الأولى... ولكنّها لم تصمت... ظلّت تحكي، وتضحك... إلى أن أنهيت الأكل وهممت بها... ولكنّي ما إن اقتربت منها ولم يعد يفصلني عنها سوى أشبار قليلة حتّى تغيّر لونها وكفّت عن الضحك وعن حكاياتها وداهمتها نوبة بكاء بدأت بعدها تحدّثني عن قتلى كثيرين

رأتهم هذا الصّباح يتساقطون أمام عينيها وعن جرحى عديدين لم تستطع ذاكرتها أن تتخلّى عن منظر أيّ منهم... حزنت لحزنها وتراجعت لأستعيد جلستي الأولى أمام بقايا المائدة أردّد عينيّ بينها وبين صاحبتي التي عنّ لها فجأة أن تنخرط في نوبة نشيج وعويل ...

قالت ضيفتي وقد ركبها الخجل ممّا سبّبته لي من نكد في ليلة يفترض أن أكون فيها هادئا مرتاح البال مطمئنّا أنعم بها وأحتفي بمقدمها :

- أنا آسفة جدّا... ولكنّ الحدث المخيف الذي شاهدته هذا الصباح ما زال يلحّ عليّ من ساعة لأخرى... ما زالت تفاصيله الدّامية تسكنني وتأبى أن تبرحني... سأحاول أن أنسى... سأحدّثك عن شيء آخر.

ثمّ عادت إلى سيرة الضّحك والمجون والرّقص.

ولا أدري لماذا حملتني ذاكرتي إلى أيّام كنت صبيّا حديث عهد بالمدرسة والمحفظة والكتب

والكراريس... أيّامها حلّ بأمّي مرض عضال ما لبث أن ألحقها بالرّفيق الأعلى... كنّا ثلاثة رابعنا أبي... ولم يستطع كلّ الحنان الذي أحاطنا به الأهل أن يعوّضنا عن أمّي... ظلّت صورتها ماثلة أمام أعيننا وظلّ صوتها الدّافئ يتردّد في أسماعنا وظلّ طيفها يملأ البيت وساحته... فكّر أبي وقدّر ثمّ فكّر وقدّر... ثمّ فاجأنا. اصطحب ذات مساء أختي الكبرى واستقلاّ سيّارة... غابا عنّا ساعة وعادا إلينا ثلاثة ... أبي وأختي و هي... ليلتها غمرنا وغمر أبي الفرح للمرّة الأولى منذ فارقت الدّنيا أميّ... لم تكن على قدر كبير من الجمال... لم تكن تتكلّم كثيرا ولا كان لديها مخزون من الحكايات والنّوادر والأخبار كهذا الذي رأيته اللّيلة ولكنّها استطاعت أن تنسينا همّنا وجعلت العائلات القريبة تفد إلينا كلّ بعد مغرب لتقاسمنا بهجتنا ساعة أو ساعتين قبل أن يغلق دوننا الباب أبي و ينفرد بالوافدة الجديدة.

ليلتها زارت أبي و زارت كلّ واحد منّا – أختي وأخي و أنا – أمّي غاضبة :

- استبدلتموني بأخرى ونسيتم حزنكم عليّ بمجرّد ما أطلّت هذه الجديـــدة و بدأت تحكي لكم قصصا باهتة وتروي لكم أخبارا كاذبة... أين ما تقوله هذه السّوداء ممّا كنت اتحفكم وأسلّيكم به ؟

قلنا لها جميعا :

- الحيّ أبقى من الميّت يا أمّنا. هذه القادمة الّتي أخذت مكانك سوداء فـعلا ولكنّها طيّبة لا تؤذي أحدا ومطيعة لا يسمع لها صوت إلاّ بعد أن يؤذن لها بالكلام.

ثمّ جاء الصّباح فذهب ما قالته المرحومة أمّي وما قلناه لها أدراج الرّياح.

قمت إلى المغسل أبلّل وجهي بالماء البارد طردا للنّوم ثمّ عدت أجلس قريبا من ضيفتي الجديدة ولكنّ الماء البارد لم يستطع أن يمنع عنّي الإغفاء

بين الحـين والحين... غفوت ثمّ انتبهت فسمعت صاحبتي تعيد عليّ أخبار الجرحى والقتلى الذين شاهدتهم صباح أمس ثمّ غفوت وانتبهت فرأيت خريطة تتوزّع في شمالها سحب وأمطار غزيرة وتغطّي جنوبها رياح رملية هوجاء... ثمّ غفوت وأفقت فوجدت مقرئا متربّعا يرتّل في أناة ما تيسّر من قصار السّور.

الكاتب الآخر

لم يكن من الذين ينكبّون كثيرا على الكتابة ولا من الذين يخصّصون لها وقتا محدّدا ولا من الذين يختارون لها مكانا بعينه. ولم يكن يلتفت إلى القلم إلاّ بعد ما يغالب طويلا رغبته في أن يكتب شيئا مّا حتى إنّه كلّما همّ بنصّ أوهمّ به نصّ استطاع أن يكمله دون تقطّع ولا تلعثم ولا طول انتظار.

يومها، حين أمسك قلمه وبسط أمامه ورقاته البيضاء لم تكن الفكرة مكتملة تماما في ذهنه ولكنّ دافعا ما لم يفهمه جرّه جرّا إلى أن يشرع في الكتابة.

ما إن أنهى السّطر الأوّل ووضع وراءه نقطة وراجعه من اليمين إلى اليسار ثمّ من اليسار إلى اليمين حتّى رنّ هاتفه الجوّال. انهمك في مكالمة دامت عشر دقائق قدّم له فيها مخاطبه آخر نشرات أخبار المدينة وأحاديثها ثمّ عاد إلى ورقته هامّا بمواصلة الكتابة. نظر إلى الورقة... قرأ ما فيها... نظر إلى القلم بين يديه... تثبّت من لون حبره... ومن حجم خطّه... قارن بين ما كتب وما وجده مكتوبا بعد النّقطة التي أنهى بها سطره الأوّل... نفس الخطّ... نفس القلم... نفس لون الحبر... نفس حجم الحروف والتواءاتها... أمسك رأسه بين يديه... أغمض عينيه وفتحهما ثمّ أغمضهما وفتحهما... حرّكهما في كلّ أرجاء الغرفة فلم تعثرا على شيء زائد أو شخص آخر... من مكانه قفز إلى باب الغرفة وشبابيكها يتثبّت من أنّها مغلقة كما أحكم إغلاقها قبل ساعة... ثمّ خرج يجري ويجول في الغرف الأخرى يبحث عن أيّ أثر لأيّ واحد تسلّل إلى الدّار وغافله

وسحب من أمامه الورقة وهو منشغل بالجوّال وأضاف إلى ما وجد مكتوبا كتابة أخرى. لم يعثر أديب العشرين كتابا مطبوعا على دليل واحد يطمئنه ويجعله يميل إلى أنّ شخصا ما قد تسلّل في غفلة منه ومازحه أو ساعده أو تدخّل في ما لا يعنيه وكتب دون إذنه كلاما على كلامه... عاد إلى ورقته وقرأ سطره الأوّل الذي كتبه ووضع وراءه نقطة ثمّ تركه على البياض وحيدا قبل أن ينشغل بحديث المدينة : "أسود. لامع. دوّار. متحرّك. وثير. عريض. مريح." يذكر جيّدا أنّه لم يكتب سوى هذه الكلمات السّبع ويذكر أنّه وضع بين كلّ كلمة وكلمة نقطة وأنّه وضع وراء الكلمات السّبع نقطة أخيرة ثمّ أمسك هاتفه الجوّال وانشغل بالكلام. من أين جاءت هذه الجملة الجديدة ومن ذا الذي تسلّل في غفلة منه وكتب نيابة عنه : "بينهما الآن عِشرة سنين طويلة" أشعل سيجارة ورشف من قهوته السّوداء الباردة جرعة واستلقى على ظهره ثمّ أخذ

يتلذّذ بمتابعة سحائب الدّخان وهي تتلوّى وتتشكّل وتتقارب وتتباعد ويمحو بعضها بعضا... ثمّ استطاع أن يقنع نفسه بعد جدال طويل معها أن لا أحد كتب الجملة الجديدة غيره. الخطّ خطّه والقلم قلمه والنّسق ذاته بل إنّها الجملة نفسها التي كان ينوي قبل أن ينشغل بالجوّال أن يكتبها. نهض ومن جديد أمسك بقلمه وكتب : "ألفه وأحبّه وأصبح يفضّله على زوجته وعلى أبنائه وبناته." ثمّ وضع القلم فوق "بناته" وخرج يضع رأسه تحت الماء البارد. أنعشه الماء البارد وأنساه وساوسه فرجع إلى غرفته مزهوّا يصفّر ويدندن بأغنية شعبيّة يحضره دائما لحنها وبعض كلماتها عندما يكون في حالة انتشاء كبير...

رشــف من قهوته السّوداء الباردة جرعة أخرى وهمّ بأخذ القلم ولكنّه لم يجده موضوعا حيث تركه منذ حين فوق "بناته" بل فوق كلمة أخرى جديدة ! نفس الخطّ. نفس حجم الحروف. نفس لون الحبر...

قفز واقفا... فتّش بعينيه كلّ أرجاء الغرفة... كّل أركان الغرف الأخرى... تثبّت إن كانت كلّ الشّبابيك مغلقة... من أين جاءت هذه الكتابة الجديدة ؟ من ذا الذي تسلّل في غفلة منه وسمح لنفسه أن يكتب بدلا عنه بنفس الخطّ ونفس النّسق...؟ بل إنّ الجملة التي انضافت هي نفسها التي كان ينوي أن يكتبها قبل أن يذهب ليضع تحت الماء البارد المتدفّق مخّه وشرايين رأسه ؟ قرأ السّطر الأوّل ثمّ قرأ الجملة التي انضافت من تلقاء نفسها ثمّ قرأ الجملة الأخرى التي كتبها بنفسه والتي أنهاها عند "بناته" ثم بدأ يقرأ بتمعّن ما وجده مكتوبا بعدها : "قال مرّة في حوار أجرته معه صحيفة "Le figaro" الفرنسيّة إنّه لا يغفر أن يقترب أيّ كان من أسوَده اللاّمع المثير المتحّرك الدّوّار العريض المريح ولكنّه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء." الآن لم يبق لديه مثقال ذرّة من شكّ في أنّه ليس وحده من يكتب هذا النّص وأنّ الأمر ليس كما يحاول أن يقتنع به

مجرّد وساوس لن تلبث أن تتركه خائبة إلى غير عود... أحسّ بقلبه يخفق بعنف وبحنجرته تجفّ وبصدره يضيق... أسرع إلى النّوافذ يفتحها حتّى يضاعف كميّات الهواء الدّاخل إلى الغرفة... تمنّى أن يصيح... أن يستغيث... أن ينتف شعر رأسه... أن يغرز أصابعه في جمجمته ويبحث بها عن تلك المادّة البيضاء الملساء العنيدة فيمسك طرفا منها بين سبّابته وإبهامه ويقرصها حتّى تتلوّى وتتأوّه ويظّل ممسكا بها فلا يتركها قبل أن تجد له تفسيرا لما يجري على أوراقه البيض... عاد إلى الورقة... قرأ ما عليها حرفا حرفا... قرأ ما كتب وما انكتب من تلقاء نفسه. لم يجد فرقا بين ما أضافته الورقة إلى نفسها وما كان ينوي إضافته. كأنّ الذي يكتب هو. النّسق نفسه والأسلوب ذاته. فكّر أديب العشرينَ كتابا منشورا وقدّر ثمّ فكّر وقدّر... "هذه عجيبة لم تحصل لي مع أيّ من النّصوص التي كتبت ما نشرت منها وما لا أزال أحتفظ به جاهزا في انتظار الطّبع.

هذه عجيبة لن أستطيع أن أرويها لأيّ كان... لن يصدّقني أحد... ولن أعرّض نفسي لسخريّة الآخرين وازدرائهم واتّهامهم لي بالجنون. بل لماذا أشكو أمري إلى النّاس أصلا ؟ ألا تبدو اللّعبة جميلة ؟ أكتب من النّصّ بعضه ويكتب النصّ بعضه الآخر... أكتب من النّصّ بدايته فتنمو البداية وتتشعّب وتبثّ فيها الرّوح وينتهي الأمر إلى نصّ سويّ ؟ الخطّ مقروء واللّغة سليمة والأسلوب جميل وكاتبي الآخر وفيّ لأفكاري..."

ومن جديد أمسك الورقة وكتب بعد الجملة التي كتبت نفسها بنفسها : "ولكنّ الأسبوع الماضي حمل إليه ما أشعره أن لذّته هدمت أو على وشك الهدم وأنّ عقله فسد أو على وشك الفساد وأنّ روحه طلعت أو على وشك الطّلوع" ثم قرّر أن يضيف جملة أخرى ليرى بماذا سيكافئه كاتبه الآخر بعد جملتين متتاليتين فكتب : "عندما أشرع له الباب الكبير ودخل وكان الوقت ضحى وهمّ

بالجلوس فوجئ بالكرسيّ يصغر ويتضاءل ويفلت من تحته ويختفي تحت المكتب وهو يطلق أزيزا مقرفا منفّرا متواصلا آخذا شيئا فشيئا في الازدياد" ثمّ وضع القلم فوق "الازدياد" وخرج إلى المطبخ ليجلب قهوة سوداء أخرى.

أصوات باعة السّوق القريب تصل أذنيه صافيه كأنّها آتية من داخل الدّار.

رجل ينادي على تينه ويصف للنّاس طعمه وعسله ويحدّثهم عن فوائده التي لا تعدّ.

رجل يعرض للبيع بثلاثة آلاف دينار قابلة للنّقاش إقامته لعامين كاملين في بلد شقيق لكلّ من يرغب في شراء سيّارة مستوردة.

شابّ (أو هكذا بدا له) يعرض للبيع إحدى كليتيه مقابل أعلى ثمن يقدّم إليه قبل أربعة أيّام أخرى.

بائع ينادي على بضاعة لم يذكرها ولكنّه كان يصيح :

"Voici ce qu'il vous faut pour le samedi soir"

عندما عاد بعد ثلاث دقائق لم يفاجئه أنّ الورقة التي ترك نصفها فارغا قد امتلأت وأنّ ورقة أخرى إلى جانبها قد ازرقّ وجهاها. لم يكلّف نفسه مشقّة قراءة النّص كاملا واكتفى بقراءة جملته الأخيرة : "ترك مكتبه للمقرئين والعرّافين والمعزّمين والسّحرة وخرج يجوب الممرّات المحيطة به طولا وعرضا جيئة وذهابا." ثمّ وضع نصّه المكتمل ذي الخمسمائة كلمة تقريبا في ظرف متنبر وبعث به إلى إحدى المجلاّت التي تخصّص ركنا من أركانها للإبداعات القصصيّة. بعد شهر واحد تلقّى من إدارة المجلّة مكافأة ماليّة لا يذكر أنّه تلقّى من قبل مثيلا لها وجاءته من رئيس التّحرير رسالة فيها : "نشكرك على نصّك الجميل ونلفت انتباهك بكلّ لطف إلى أن لا ترسل إلينا مستقبلا غير نصوص قصيرة لا تتعدّى الثّلاث صفحات." أسرع إلى أقرب كشك يبحث عن المجلّة التي كافأته وشكرته ونبّهته فاكتشف أنّ نصّه قد انسحب على كلّ المساحة المخصّصة

للنّصوص القصصيّة وأنّ المجلّة لم تنشر غيره وأنّه يجاوز السّبعة آلاف كلمة ويحتلّ عشرين صفحة. لم يفرح أديب العشرين كتابا لأنّ نصّه نما من تلقاء نفسه وطال وتشعّب ولم يفرح لأنّ المجلّة كافأته وشكرته بل فرح كثيرا لأنّ هذا النّص بهذا الطّول سيوفّر عليه مشقّة كتابة نصوص أخرى ينهي بها مشروع مجموعته القصصّية المنقوصة. جمع إلى نصّه الطّويل نصوصه السّابقة ورتّبها فوق مكتبه في انتظار أن يبعث بها صباح اليوم الموالي إلى دار اعتادت أن تنشر له قصصه ورواياته. ليلتها ثارت في ذهنه أسئلة محيّرة لا حصر لها ولكنّه أقرّ بينه وبين نفسه أنّه عاجز عن أيّ إجابة فقرّر أن يتجاهلها جميعا وينام... نهض الصّباح بطيئا يتثاءب ويفرك عينيه ويمطّط أطرافه في الفضاء الواسع ثمّ انحنى على أديب العشرين كتابا يربّت على كتفه ووجنتيه ليوقظه من سبات عشر ساعات كاملة... تبادلا نظرات سريعة نهض إثرها الكاتب يغتسل ويفطر ويستعدّ للخروج... عندما دلف أخيرا إلى مكتبه

ليتناول مخطوط الأقاصيص و يتّجه الى أقرب مركز بريد، لم يجد للمخطوط أثرا ولكنّه فوجئ بطرد بريديّ من الحجم الكبير يحتلّ شطر الطّاولة... امتدّت يده مرتجفة تفضّه وتجوس داخله فخرجت منه بالكتاب الواحد والعشرين مطبوعا جاهزا بصورة على الغلاف أنيقة وبنفس النّصوص التي كان ينوي إرسالها وبنبذة عن حياته وسيرته الأدبيّة... هذه المرّة، لم يصرخ ولم يولول ولم يسرع إلى الماء يضع تحته مخّه وشراايين رأسه ولكنّه خرج جريا إلى الشّارع ليلقي بنفسه تحت أوّل هيكل حديديّ قادم بجنون...

إحضر حالاّ

بيني وبينك الآن مسير ساعة أو أقلّ.

بيني وبينك الآن صبر ساعة واحدة.

ولا أظنّك تعجز عن الحياة ساعة إضافيّة أخرى

ولا أظنّ الموت مستعجلا إلى حدّ أن يقطفك منّي قبل أن ترى عيناي عينيك وأسمع آخر كلامك وتلفحني آخر أنفاسك.

ولا بدّ أنّهم أخبروك أنّني في الطّريق إليك.

ولا بدّ أنّهم ألحّوا على الأطبّاء المحيطين بك ليجتهدوا في إبقائك حيّا حينا آخر من الوقت.
ولا بدّ أنّك فهمت أنت أيضا أنّه عليك أن تتمسّك بالحياة إلى أن أراك لآخر مرّة...

"احضر حالا إن استطعت. نقلنا الوالد على جناح البرق إلى المصحّة وننتظر عودتك ليراك قبل أن ..."

إرساليّة قصيرة وصلتني إلى هاتفي الجوّال صباح اليوم وأنا أستعدّ للتوجّه إلى عملي.

البارحة لم أنم. لم يأخذني النّوم من هواجسي وذكرياتي إلاّ ساعة تنقص قليلا أو تزيد قليلا. سمعت نقرا خافتا على الباب فخففت أفتحه لأجدك واقفا أمامي وابتسامتك العريضة الجميلة على وجهك الأسـمر الجميل ... احتضنتك ودخلت بـك وجلست أمامك أتأمّلك وأسألك وأجيب عن أسئلتك... أخرجت من حقيبتك أصناف الحلوى والشاميّة والبسكويت التي دأبت على اقتنائها لي

مذ كنت طــفلا تصطحبني كلّ صباح إلى المؤدّب وتعود بي منه كلّما انتصف النّهار. سألتك عمّا جاء بك إلى فرنسا أو تحديدا عمّا جاء بك إليّ هكذا دون سابق إعلام فلم تردّ بشيء. كنت تنظر إليّ كأنّك لم ترني منذ سنين وكنت أتملّى وجهك كأنّني أراك لأوّل مرّة. عندما سرقت نفسي منك وهرولت إلى المطبخ لأعدّ لك فطورا يليق بزيارتك الفجئيّة السّعيدة ثمّ عدت إليك أحمل بين يديّ صينيّة عليها قهوة فائرة وخبز طريّ وبسكويت وموز وعصير... لم أجدك في الغرفة ولم أجد لحقيبتك أثرا ولا حتّى لأشيائك الجميلة التي جئتني بها من بعيد وأعدتني بها إلى أكثر من عشرين عاما مضت.

- أخبروني الآن أنّ والدي ينازع الموت. سأسافر لأراه.

هكذا رغم حالة الهلع التي أدخلها عليّ خبر الهاتف الجوّال اهتديت إلى أنّه عليّ أن أحيط مدير المعهد السيّد Franois Bonneau بأمر غيابي.

- أرجوك سيّد جمال، هل أستطيع أن أساعد بشيء ؟
- شكرا. شكرا جزيلا. سأطلب مساعدتك بمجرّد ما أحتاج إليها.

ثمّ أسعفني الحظّ بمقعد في طائرة متّجهة في حدود منتصف النّهار إلى تونس العاصمة... وأنا أشاهد عبر الكوّة المطلّة على الفضاء الواسع كتل العهن المنفوش التي تحيط بالطّائرة، جاءت المضيّفة توزّع الأطباق وجاء يتبعها نادل يسوق عربة ويوزّع أنواعا مختلفة من الشّراب.

- لا. شكرا. قلت لها.

وتناولت من العربة قارورة ماء.

أنهت المضيّفة مهمّتها القصيرة وعادت إليّ. اقتربت منّي وكلّمتني همسا :

- أراك على غير ما يرام... هل أستطيع أن أساعدك بشيء ؟

- أبي ينازع الموت. أريد أن أصل إليه حيّا. أتمنّى لو تزيد الطائرة في سرعتها. أتمنّى أيضا لو تحطّ الطّائرة في المصحّة التي نقل إليها والدي حتّى أتجنّب إجراءات المطار وأختصر الوقت من العاصمة إلى مدينتي البعيدة.

ربّتت المضيّفة على كتفي ونظرت إليّ بإشفاق وقالت :

- ربّي معاك.

واختفت.

بيني وبينك الآن نصف ساعة أو أقلّ.

بيني وبينك الآن صبر نصف ساعة آخر.

هل تراك تعجز عن التمسّك بالحياة ثلاثين دقيقة أخرى ؟ أنت الذي قضيت عمرك تخاتل الموت وتراوغه... أربعون عاما وأنت يابس وراء مقود حافلة تنقل الرّكاب من أقصى البلاد إلى أقصى البلاد...

أربعون عاما وأنت تخيط جنوب البلاد بشمالها وتربط بين الصّحراء والبحر... أربعون سنة وأنت تراوغ

حوادث الطّريق وتهرب من موت يترصّدك في كلّ منعرج ويهمّ بك في كلّ آن... أربعون عاما وأنت تغالب رغبتك في النّوم الطّويل الهادئ المطمئنّ... هل تراك تعجز عن البقاء حيّا، عن البقاء جثّة بعينين مضيئتين وأنفاس ترفض أن تنقطع إلى ما بعد وصولي إليك بدقيقة أو دقيقتين ؟

قال لي سائق السيّارة التي اكتريتها لتنقلني على جناح السّرعة من مطار تونس قرطاج إلى مصحّة النجدة بمدينتي البعيدة :

- أنا لا أعرف أباك ولا أعرف أمراضه ولكنّ قلبي - وقلبي ما تعوّد أن يطمئنني كذبا أو يخطئ في تقديره- ما فتئ يؤكّد لي منذ أخبرتني عن سبب عودتك وألححت عليّ لأزيد في سرعة السيّارة أنّ والدك بخير وأنّه سيجتاز محنته وأنّه سيراك وسيقبّلك وسيكلّمك.

لست أدري لماذا تمنّيت لو سمعت هذا الكلام أو كلاما مثله وأنا في الطّائرة لأرفع يديّ إلى

السّماء القريبة وأستخير الله أن يحقّقه... لست أدري لماذا خطر لي أنّني كنت قريبا جدّا من الله وأنا معلّق بين الفضاء والفضاء ولكنّي ضيّعت على نفسي وعلى والدي فرصة الدّعاء لي وله... لست أدري لماذا فكّرت بذلك ولكنّي استغفرت ورفعت يديّ ودعوت الله أن لا يخيّب قلب هذا الرّجل الذي يبدو طيّبا جدّا...

أشار علينا عون مرور بالتوقّف ثمّ طلب أوراق السّيّارة وبطاقتَي هويّتنا. قلت له :

- أبي ينازع الموت. أريد أن ألحق به حيّا. لا تضيّع وقتنا أرجوك.

لم تعجب عبارة "لا تضيّع وقتنا" عون المرور فاستشاط غضبا وشرع يفتّش السّيّارة ركنا ركنا. ولمّا لم يعثر على شيء التفت إليّ حانقا هامّا بمعركة كلامية قدّرت وقتها أنّها ستكون وخيمة العواقب... ولكنّي وقبل أن ينطق بكلمة واحدة مددت إليه يدي واعتذرت له وألححت في الاعتذار

معيدا عليه خبر والدي الذي ينازع الموت ورغبتي التي لا حدود لها في أن ألحق بآخر لحظات عمره.

- ولكنّك ستموت قبله، قال الشّرطي.

سألت ببلاهة :

- وكيف عرفت ؟

- إذا واصلتما طريقكما على هذا النّسق من السّرعة، فستموتان حتما.

ثمّ أدار إلينا ظهره... وأدار السّائق المفتاح... وانطلقنا.

قلت لسائقي :

- أسرع كثيرا من فضلك. لقد ضيّع علينا هذا الشرطيّ عشرين دقيقة كنّا سنصل خلالها إلى مصحّة والدي.

بيني و بينك الآن ربع ساعة يزيد قليلا.

إذا كنت بقيت حيّا منذ حملوك إلى المصحّة إلى هذه اللّحظة فهل تعجز عن احتمال الحياة ربع ساعة آخر ؟ إذا كنت قد صمّمت على أن تحترم

رغبتي في رؤيتك حيّا وأن تؤجّل موتك إلى ما بعد حضوري إليك بقليل فلا أظنّك تتراجع عن تصميمك ولا أظنّك تنهار قبل وصولي إليك...

- آلو ... جمال... أين أنت الآن ؟
- إنّي اقترب. ما الجديد ؟
- أبوك...
- احذر هذه الشّاحنة التي تعترضنا... إنّها تنحرف نحونا... خفّف سرعتك ولازم يمينك و...

بيني و بينك الآن مرمى نفس أو أقلّ.

كنت ملفوفا من رأسي إلى قدميّ.

كانت عيناي منطفئتين وكان قلبي قد توقّف عن الخفقان بعد أن توقّف قلب السّائق بخمس دقائق... ترك أطبّاء مصحّة النّجدة والدي بعدما عدّلوا ضغطه وسكّره ونظّموا دقّات قلبه واطمأنّوا إلى أنّه سيعود إلى الحياة... وجاؤوا إلينا. فحصوا السّائق وأعلنوا موته ثمّ فحصوني وقالوا : رحمه الله... تركت سريرك في الغرفة المجاورة وجئت تتّكئ على أمل كاذب

وأذرع مرتجفة ودواء مازال يجتهد ليعيدك حيّا تسعى... وقفت قريبا منّي ... سحبت أصـــابعك القماش الأبيض... وفركت يدك شعر رأسي... ومسحت عيناك عينيّ المنطفئتين ووجهي المبيّض حزنا عليك... ثمّ هويت عليّ تقبّلني وتلفحني بأنفاس لاهثة عطشى معطّرة بروائح الدّاء والدّواء... أسرع إليك أطبّاء وممرّضون ليرفعوك عنّي ويعيدوك إلى سريرك ودوائك فألفوك يابسا فوقي. وجهك على وجهي وكفّك على شعر رأسي ودموع متخثّرة تسيل منك إليّ.

بيني و بينك الآن بكاء وأصوات نشيج وعويل يتردّد في كلّ أرجاء مصحّة النّجدة.

بيني وبينك الآن قرآن يتلى ودعاء بالرّحمة وحسن المآب.

ليلة خانتني صاحبتي

أنا هكذا، لا يأتيني الشّرّ إلاّ ممّن أحسن إليه كثيرا ولا أغضب منه إلاّ بمقدار... لا تصيبني الخيانة إلاّ ممّن أتعهّده بالحبّ وبالعطاء... لا يفجعني في راحتي وهنائي وهدوء بالي إلاّ من يتأكّد أنّني مسالم معه مستعدّ لأن أخدمه دوما دون انتظار مقابل... ذكّرتني بحظّي التّعس هذا سياط الألم التي كوتني بها البارحة صاحبتي... ألم أحسسته

مضاعفا مرّات ومرّات بمجرّد ما استحضرت تاريخي معها وفرحي بها أيّام أقبلت عليّ وعنايتي التي لم أبخل بها عليها وعلى كلّ اللّاتي ربطتهنّ بها الجيرة والقرابة وسنوات العشرة... أيّام قيل لي إنّها قادمة فرحت وغمرتني السّعادة ... هكذا اســـتبشرت بها خيرا قبل حتّى أن أراها وأتعرّف إليها وأختبر سلوكها وطباعها وإخلاصها... قلت سأبدأ بمجيئها إليّ حياة جديدة... وقرّرت أن أتخلّى نهائيّا عن عبثي ومجوني وكسلي... نفسي حدّثتني أنّه سيكون عارا أن أمضي في استهتاري وأصرّ على مجوني في حضور القادمة الجديدة التي يشهد لها الذين عرفوها قبلي بالعقل وبالرّصانة والاتّزان. أسكنتها عندي... في بيتي... منحتها فيه جناحا آمنا لا يأتيه الهرج من أمامه ولا من خلفه ولا يصل إليه برد الشّتاء وزمهريره ولا حرّ الصّيف وألسنة لهبه. معا نأكل ونشرب وننام ونستحمّ ونتعطّر... البارحة خانتني وأوجعتني بخيانتها الموصوفة

وتنكّرها المفاجئ للعشرة التي ربطت بيننا... لنعمي عليها وأفضالي التي شهدت لي بها جارات لها كثيرات ومبالغ طائلة صرفتها عليها وأوقات حميميّة جدّا قضيناها معا. كنت أستعدّ لمغادرة البيت لأنزل ضيفا على صديق انتزع منّي منذ يومين وبعد إلحاح شديد ليلة البارحة موعدا لزيارته.

منذ ساعة هاتفني سائلا :

- ستأتي ؟

فرددت عليه مطمْئنا :

- ها أنا أجهّز نفسي للخروج. سأكون عندك في الوقت الذي حدّدناه سويّا.

ولكنّها، وأنا أتهيّأ لمغادرة الدّار شدّتني شدّا موجعا وقالت لي في عناد :

- لن تذهب إليه.

رددت عليها متودّدا :

- ولكنّي وعدته والوعد دين.

زادت فأمعنت في قرصي وهي تقول :

- لن ينفعك الذّهاب إليه في شيء. لن يحلو لك معه كلام ولا أكل ولا سهر.

ثمّ اتّكأت على مرفقها ووخزتني بقدمها وقالت لي :

- أنصحك أن لا تبارح بيتك اللّيلة.

وزادت بعد تحذيرها الصّريح فقرصتني قرصات قويّة حادّة ككيّ النّار أو كلسع المشرط أو كصعق الكهرباء. أسرعت بعدها أنزع ملابس الخروج وأرميها على أرضيّة الغرفة كيفما اتّفق وألبس منامتي وأرتمي على السّرير وأنا أردّد بصوت لاهث :

- حاضر... حاضر... سألازم البيت... سألازم البيت. سأسهر معك وسننام سويّا هنا.

فكّرت وأنا أسحب عليّ وعليها الملاءة وألفّ رأسي ووجهي بغطاء قطنيّ أنّه عليّ أن أهتدي إلى وسيلة أقنعها بها وأردّها عن إمعانها في خيانتي وفي تعذيبي... بارد طقس الشّتاء وكئيب... ولا أحد

معي في البيت يؤنسني ويشاركني تقصير اللّيل بالحديث أو حتّى بالصّمت وينسيني خيانة صاحبتي التي آويتها وتعهّدتها بالحبّ وأنعمت عليها نعما لا تحصى فقابلتني بعد أن اشتدّ عودها وأصبحت مخلوقا سويّا بخيانة واضحة ووخز موجع وعناد شديد... تركتني أجوب أرجاء البيت وأبحث في رفوف الخزائن وأجواف الأدراج عن دواء لخيانتها، عن أيّ شيء أسكت به غضبها... ولكنّها وأنا أرتّب أمامي ما جمّعته من وسائل قدّرت أنّها كفيلة بإقناعها وردّها عن غيّها نظرت إليّ شزرا وقالت بتشفّ :

- عبث ما تفعله يا صديقي. لن ينفعك في شيء هذا الذي جئت به من الرّفوف والأدراج وكدّسته أمامك وعوّلت عليه لتتآمر معه ضدّي.

احتدّ بعد كلامها ألمي وازداد غضبي وبدأت أوقن أنّ ليلتي لن تكون آمنة... جذبت مرآة يدويّة كانت أمامي... حدّقت في وجهي مليّا وأرسلت نظري

إلى مناطق الظلّ المختبئة في فمي أطالع فيها أثر الضّربات التي أوجعتني بها صاحبتي فاستوقفت عينيّ كدمات زرقاء وانتفاخ غير عاديّ في تجويف بعيد... حزمت أمري والتفتّ إلى معذّبتي التي عنّ لها اللّيلة أن تتنكّر لعشرتنا وأفضالي عليها وقلت لها متحدّيا ألمها وخيانتها وسوء صنيعها :

- هذه اللّيلة هي الأخيرة معك. سأحتملك إلى أن تطلع شمس النّهار الجديد ثمّ يكون بيننا فراق لا نلتقي بعده أبدا.

حرّكت ساقها في اتّجاهي بغنج وقالت كالباكية :

- لم تقل شيئا من هذا القبيل قبل أن أعتلّ ويبدأ في تسلّقي هذا الهرم المبكّر ويترك وجهي بياضه النّاصع لهذا السّواد النّتن الذي ألحقته بي جاراتي المريضات وخدماتي التي أسديتها لك على مرّ سنين طويلة...

أشفقت عليها... رغم أنّها بعد أن أنهت كلامها ونشيجها وخزتني من جديد وخزا أحسسته كلسع

المشرط أو ككيّ النّار أو كصعق الكهرباء... أشفقت عليها... ولكنّي بين نفسي وبيني كنت قد عزمت على أن أضع حدّا لصداقتنا... هكذا أنا. لا أطيق الخائن بعد أن تنكشف خيانته وأصبر على اللّئيم ما لم يتمرّد.

لملمت صاحبتي أطرافها واستقرّت في مكانها لا تتحرّك ولا تتكلّم، كأنّها استحيت، كأنّ ما كان بيني وبينها من ماء وملح وخزها وأيقظها وقام ينهاها عن غيّها. كأنّها تتأسّف عن تمرّدها عليّ أنا عشيرها لسنوات عديدة ووليّ نعمتها... كأنّها تعتذر عن وقوفها في طريق ذهابي إلى صديقي الذي دعاني للعشاء على مائدته.

هاتف البيت وهاتفي الجوّال يتناوبان على الرّنين منذ أكثر من ساعتين... رنين عنيف عنيد ملحاح أضاف إلى الآلام التي كوتني بها صاحبتي آلاما أخرى أصرّ على زرعها في ضميري وعبر اللاّسلكي صديقي صاحب الدّعوة. توبيخ لاسلكيّ

أستحقّه عن جدارة ولا سبيل إلى أن أطمع مجرّد الطّمع أن يغفر لي زلّتي باعثه مهما سأبرع في تصوير الآلام المبرّحة أو الصّعقات الكهربائية أو لسعات المشرط التي كوتني بها صاحبتي بخيانتها الموصوفة لي ولنعمي ولعشرتنا الجميلة.

مددت يدي إلى السّماعة ووضعتها جانبا وضغطت بإبهامي ضغطات متتالية أسكتّ بها نباح الجرو الصغير... ثمّ عنّ لي أن أسأل التي كانت خليلتي عن سرّ الهجوم الذي قادته ضدّي دون إعلام سابق. بحثت عن أيّ كلام لأوبّخها ولأوقفها على بشاعة ما ارتكبت وعلى إمعانها في خيانتي على مرأى ومسمع منّي فلم يسعفني لساني بأيّ صوت... ولم يستطع أن أتوجّه إلى خائنتي بأيّ لوم... ولكنّه همس لي :

- لن ينسيك الكلام الألم الذي لسعك. دعني أجرّب معها طريقة أجدى.

قلت له :

- جرّب.

و بقيت أنتظر.

وضع لساني طرفه على أسفل رقبة صـــاحبتي و ثبّته هنيهة ينتظر ردّة فعلها... ولمّا اطمأنّ إلى أنّها لا تعارضه ولا تهرب منه شرع يتسلّق كامل الرّقبة صعودا ونزولا قبل أن يستقرّ على الوجه يقبّله ويلحسه ويداعبه .كأنّما لساني يطلب من صاحبتي هدنة ريثما يدبر هذا اللّيل الطويل... كأنّما لساني يسكت عن صاحبتي الغضب ويعتذر بدلا منّي عن ذنب لم أستطع تبيّنه. ولكنّه فجأة انتفض ملسوعا وابتعد عن وجه صديقتي وركض يختبئ في جحره لائذا بالصّمت والتّرقّب تاركا لي أن أتّخذ بنفسي القرار المناسب... ومع هروب لساني، انتفض فيّ الألم من جديد... وبدا لي كأنّ رأسي انشطر... وكأنّ عينيّ التهبتا... وكأنّ البرق لمع بينهما. نفد صبري وازداد غضبي وآلمني أن لا حيلة لي... أخذت أذرع البيت جيئة وذهابا أعدّ مع عقارب السّاعة الجداريّة

ما تبقّى في عمر اللّيل وأنا أحاول أن أتجلّد وأن أحتمل لذع الخيانة في انتظار أن يهلّ الصّباح فأنتقم لنفسي وأطفئ غضبي وأسكت ألمي وأقول لصاحبتي التي وقفت بنفسي على خيانتها : وداعا، وداعا، وداعا.

حللت الغطاء الذي كنت ألفّه حول رقبتي ورأسي وأعدت ربطه من جديد ضاغطا دون إشفاق على الموقع الذي تلقيّت فيه لكمات صاحبتي ثمّ كوّمت فوقي كدس أغطية وبدأت أئنّ.

***

قال لي الرّجل الأنيق بعد أن مدّدني على الكرسيّ النّائم ونظر مليّا في قاع فمي المفتوح عن آخره :

- لا شكّ أنّك قضيت ليلتك تذرع البيت جيئة وذهابا وتنتظر على جمر مجيء الصّباح.

لم أقل شيئا ولكنّي استسلمت لإبرته التي وخزني بها في موقع آلام البارحة ولكلاّبته

التي استلّ بأظافرها صاحبتي الخائنة... فتحت عينيّ بعد دقائق فرأيت ضرسي، ضرسي الذي قيل لي أيّام سكن عندي أنّه سيعقّلني و أنّه سيكون العلامة القاطعة على نضجي واكتهالي واكتمالي... رأيته متربّعا وسط كفّ الطّبيب، منكّس الرّأس أسود من الخجل، ولم أدر لماذا خيّل إليّ أنّني سمعته يعتذر عن سوء صنيعه معي البارحة ورأيته يلوّح لي بذراعه مودّعا وفي عينيه ذلّ اليتم ودموع من دم.

كان ... هنا

رحمه الله.

لم أحبّ أحدا من الخلق مثل ما أحببته.

لم أفكّر في رجل سواه ولا أذكر أنّني نظرت أو تكلّمت إلى أحد غيره إلا عرضا.

كان يحبّني.

كان يعبدني.

ولم يكن يطيق فراقي.

معا كنّا نسافر ونتنزّه ونلهو ونعبث...
أحلى أوقاته كانت معي.
ولم تكن لأوقاتي بدونه قيمة ولا نكهة.
كان كلّما رآني همّ بي.
وكنت كلّما لمحته قادما، أشرعت بابي وقلت : "هيت لك".

كان يركبني لساعات طويلة فلا أملّه ولا يملّني ولم تكن لركوبه أوقات محدّدة. كان يأتيني أوّل النّهار... وأوّل اللّيل... وكان يأتيني أواسط اللّيل وأواخره... وأواسط النّهار وأعقابه. كانت تحضر لقاءات النّهار "وردة الجزائريّة" و"هيام يونس" و"نبيهة كراولي"... ولم نكن نسمح في اللّيل باختراق خلواتنا لغير السّيدة "أمّ كلثوم" حتّى إنّنا أدمنّاها وأصبحنا نغنّي معها عن ظهر قلب : "أغدا ألقاك و"ثورة الشكّ" و"هذه ليلتي" و"ألف ليلة وليلة" وأغان كثيرة أخرى...
رمّلني دعاء زوجته ورمّلها.

كلتانا أصبحت بلا رجل.

كلتانا ترمّلت في ريعان العمر.

كلتانا ستصبح مطمع العيون الزّائغة والأرامل القدامى وذوي الجيوب المنتفخة الذين يظنّون أنّهم بما في جيوبهم قادرون على امتلاك كلّ ما يشاؤون.

أنا... لن أكون لواحد بعده. أبدا لن أكون.

حتّى لو دفع فيّ أموال الدّنيا... حتّى لو كان أنيقا ووسيما وثريّا.

ولو اضطررت لأن أكون لغيره... سأقتله. سأجعل لقاءنا الأوّل هو لقاءنا الأخير...

لم أكن أحسب أنّي سأترمّل الآن. هكذا باكرا وأنا في أوج العطاء...

كان يقول لي :

- جرّبت قبلك أخريات -ولا تغضبي- تلك كانت تجارب لن أعيدها أبدا- فلم ألتق ولو مرّة بواحدة تعطي أكثر ممّا تأخذ. كلّهنّ عداك يا "سلطانة" -

هكذا حرّف اسمي وأصبح يحلو له أن يناديني ويتكلّم عنّي - كلّهنّ عداك كنّ يأخذن كثيرا ولا يعطين إلاّ بمقدار... أخذن جيوبي وصحّتي وأعصابي ووقتي وقليلا ما كنت أجد مع إحداهنّ الرّاحة. حتّى اللّذّة معهنّ كانت تأتي متقطّعة... متعثّرة... مرتبكة... بل مُرّة في أحيان كثيرة.

وكنت أردّ عليه :

- ستستبدلني ذات يوم بأخرى وستقول لها عنّي إنّني كنت آخذ كثيرا ولا أعطي إلاّ بمقدار وستقسم لها على أنّها استطاعت سريعا أن تنسيك إيّاي.

فيمسك رقبتي بين يديه ويهوي عليها يقبّلها وهو يغمغم :

- لن يكون هذا أبدا.

زوجته هي الأخرى لم يدر في حسبانها أنّها ستترمّل باكرا. ولم تكن تظنّ أنّ دعاءها سينزل الفارس عن فرسه ويترك كلتينا فرسا بلا فارس.

في عينيها رأيت ذلّ النّدم.

حزنت وبكت عليه أيّاما وليالي ولكنّ ندمها على دعائها الذي دعته عليّ فحاد عنّي وأصابه كان أكبر من الحزن وأعظم من البكاء... حزنت زوجته وبكت... ولكنّ ندمها على ما كانت سبّبته له من نكد وما افتعلته من خصومات يوميّة وليليّة معه بسبب علاقتنا المعلنة... كان أكبر من حزنها ومن بكائها.

مرّة، فتحت سيّارته قبل سفرنا بلحظات ووضعت داخلها جهازا مهيّأ لتسجيل ما سيدور بيننا من حديث. لفّت الجهاز وأخفته وأسرعت تختفي داخل غرفتها تنتظر على جمر أن تقرأ بعد عودتنا ما سنكتبه فيه. يومها، لم نذهب بعيدا ولم نبطئ كثيرا. مأرب ساعة أو أقلّ ثمّ عدنا... تركني في بيتي بعد أن اطمأنّ عليّ ووضع على جبيني قبلة وربّت على كتفي ثمّ لوّح إليّ بذراعه ومضى.

ليلتها سمعتني أقول له :

- لزوجتك عليك حقّ. اتركني واهتمّ بها. عد إليها باكرا ولاعبها كما تلاعبني وعاشرها كما تعاشرني. أسكت غضبها بوقت إضافيّ خذه منّي هنيئا مريئا.
- لن يسكت غضبها إلاّ إذا تخلّيت عنك نهائيّا. هذا شرطها الأخير.
- ولكنّي لا أستطيع أن أعيش بعيدا عنك لحظة واحدة. بدونك لن يكون أمـــامي إلاّ الانتحار. سأرمي بنفسي وسط طريق مزدحم في ساعة ذروة وليأت الموت.
- لا تعيدي هذا الكلام على مسمعي. أنا اخترتك واخترت أن يكون طريقي معك... ولن أتراجع...

ليلتها، وكانت جمعة، عرّت زوجته رأسها وأرسلت بشعرها في اتّجاه النّجوم وأمطرت ساحة الدّار بالدّعاء عليّ.

- اللّهمّ عجّل بقصف عمر هذه الخائنة اللّعوب. اللّهمّ أنبت فيها مرضا عضالا لا يهتدي إلى

علاجه الأطبّاء ولا المتطبّبون ولا تكتشفه الآلات الطبيّة ولا تشخّصه أحدث آلات التّشخيص...

اللّهمّ أبعد كليهما عن الآخر بعدا لا أمل في اللّقاء بعده أبدا...

اللّهم...

اللّهمّ...

اللّهمّ...

ولكنّ الدّعاء الذي تحقّق سريعا حاد عنّي وأصابه. قصف الدّعاء عمر حبيبي ففاجأته نوبة قلبيّة نقلته في ثوان قليلة من الدّنيا الواسعة إلى الآخرة البعيدة وبقيت أنا -سلطانة- فرسا بلا فارس أو امرأة بلا رجل... أو امرأة لكلّ الرّجال.

يومها، كنّا سنخرج سويّا... قال لي :

- انتظريني في بيتك لحظة. سأمرّ عليك وسأصطحبك لنقضي وقتا حميميّا معا.

نسيت أن أقول لكم إنّه هو من بنى لي هذا البيت المستقلّ... بناية صغيرة بسقف جميل وباب عريض وشبابيك عالية وبما يفي بالحاجة من زاد وشراب وأحذية وأغطية...

قلت له :

- إلى أين سنذهب ؟

وكنت قليلا ما أطرح عليه هذا السّؤال. لم يكن يهمّني أبدا إلى أين سنذهب. المهمّ أن أكون معه. يده على رقبتي وأنفاسه تلفح صدري... وشفاهنا تردّد معا كلمات أغنياتنا المفضّلة.

ردّ عليّ :

- إلى مكان بعيد عن أعين الخلق. إلى حيث لا يرانا سوانا.

وذهب ليعود بهاتفه الجوّال... وبدل صوته الذي كان سيأتيني دافئا حالما جذلا : - تعالي إليّ - جاءني عويل زوجته وأخواتها وأخواته يعلن موته الفجئيّ الذي لم يكن أحد ولا حتّى أنا يتوقّعه في

ذلك الوقت... قلن بعد ذلك إنّه أمسك قلبه و ترنّح... ترك قلبه وأمسك بكلتا يديه الهواء... ثمّ هوى... شخص ببصره إلى السّماء... ثمّ شخر... ونطق باسمي وبالشّهادتين... وأسلم الرّوح.

بكيت...

بكيت...

بكيت...

في صمت بكيت... وفي صمت حزنت... وفي صمت دعوت الله أن ينتقم لي من زوجته على ما اقترفته في حقّنا جميعا -هي وأنا وحبيبي- من دعاء.

كم افتقدته.

وكم حزنت عليه.

كم أصبحت طويلة السّاعات بعد رحيله.

كم أصبحت مريرة اللّيالي وكلانا بعيد عن الآخر.

كم أصبح بلا معنى الكلام حين لا يكون منه ولا إليه.

البارحة سمعتني أعتذر لعنترة العبسيّ وأقول له :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو (سمع) الكلام مكلّمي

كم...

لو...

كم...

لو...

بعثت لي العائلة بعد أسبوع واحد من موته تسألني :

- اللّي مات، مات. مشى على روحه. وها هو أخو المرحوم ينوي أن يحلّ محلّه فيك، فما هو رأيك يا سلطانة ؟

لم أقل شيئا. أطرقت أفكّر وظللت مطرقة إلى أن ملّني الحاضرون وانسحبوا.

في صباح اليوم الموالي، تناهى إلى سمعي حديث النّاس عن حادث غريب عجيب. قالوا إنّهم

شاهدوا سيّارة حمراء طويلة جديدة تدكّ باب مستودعها وتنطلق كالبرق نحو المقبرة، تتسلّق حائطها وتلقي بنفسها من فوقه لتهوي بين الأموات جثّة هامدة.

مرايا

1

قالت إحدى صديقاتها :

- قلت لها : " ابني يموت. تركته يهذي ويختلج وخرجت أبحث عمّن يقرضني إلى أجل غير مسمّى أجرة الطّبيب والدّواء. الحمد لله الذي وضعك في طريقي وأعفاني من كثير من الحرج." فأقسمت لي بأغلظ الأيمان أنّها لا تستطيع أن تساعدني بشيء وشرعت تتأسّف وتتحسّر لأنّ طلبي جاء في وقت غير ملائم... ثمّ انصرفت وانصرفت بعدها هائمة على وجهي...

قادتني رجلاي إلى مبنى أحد البنوك ووقفت أراقب بعينين مرتعشتين عمليّات الدّفع والسّحب والعدّ... تبادر إلى ذهني أن أختطف كمشة أوراق نقديّة وأطلق ساقيّ للرّيح... اقتربت من سائحة عجوز وهممت بها، ووقفت وراء شيخ أعرج وهممت به... والتصقت بفتاة أنيقة تلبس تنّورة قصيرة وحذاء عاليا وكدت أهمّ بها... ولكنّي فكّرت فجأة في العواقب المحتملة وفي "سامي" المريض فقرّرت أن أعدل عن الخطف والسّرقة وأن أقف بالباب وأمدّ يدي للسّؤال... جاءت إحدى السّيدات ووضعت في يدي دينارا... ومدّ لي كهل محترم بضعة دنانير وهو يتأمّلني ويحوقل ويستغفر... ومرّ أمامي ستّة حرفاء آخرون دون أن يضعوا في يدي الممدودة شيئا... ثمّ جاءت ! وقفت أمامي، نظرت في عينيّ كأنّها تنظر في عيني أيّ شخص آخر لم تره قبل اليوم ولا تربطها به معرفة

سابقة أو علاقة ودّ وحبّ... كانت لا تزال تمسك بين أصابع يدها اليمنى المبلغ الذي سحبته للتوّ من موظّف البنك... قبل ساعة واحدة، كانت تقسم أنّها لا تستطيع أن تساعدني بشيء. انتظرت أن تعتذر لي و أن تقول لي : خذي ممّا بين يديّ ما يكفيك، ما يشفي ولدك المشرف على الموت... ولكنّها لم تقل شيئا... ولم تضع في يدي الممدودة أبيض ولا أصفر، ولم أجرؤ أنا على أن ألومها أو أوبّخها... أو أشجّعها على الاعتذار. نظرت إليّ، قاست عرضي وطولي، مسحت بعينيها كل أجزاء بدني المختلج... ثمّ تمتمت وانصرفت.

همس في أذني شابّ أنيق وهو يدسّ في يدي ورقة نقدية :

- اتبعيني... سيّارتي قريبة من هنا ولا أحد معي في البيت.

لم أفكّر طويلا. ركضت إليه. وركضت بنا سيّارته... و لكنّ نزوته سكتت بمجرّد ما سمعني أتحدّث عن ولدي الذي تركته يرتعد ويهذي.

2

و قال زميل لها يقاسمها منذ أشهر مكتب شؤون الموظّفين : كنت أختبئ في ركن من أركان "نزل الهوى" أجالس شرابي وسجائري وأتلهّى بين الكأس والكأس بكتابة الإرساليّات وإجراء مكالمات قصيرة عندما رأيتها تدخل، شعرها على كتفه ويدها في يده وساقها تكاد تلتفّ بساقه... ثمّ جلسا حيث أراهما ولا يراني منهما أحد. أسرعت أضع نظّاراتي لأقرّب إلى بصري المشهد وأتملّى تفاصيله التي بدأت شيئا فشيئا تزداد إثارة. وضع النّادل أمامي كأسا نصف مملوءة ثمّ ذهب يفتح لها وله قوارير خضراء وحمراء... رأيته بعد ذلك يعود إليهما ويتكلّم معهما في حنوّ وهدوء وفهمت أنّه

يتوسّل إليهما أن لا يتجاوزا القبل واللّمس والجسّ احتراما لبقيّة نزلاء النّزل... أدخل مرافق زميلتي يده في جيبه ودسّ ورقة نقديّة بين أصابع النّادل الذي غاب عنهما برهة ثمّ عاد وقادهما إلى غرفة بإحدى الطّوابق العلويّة.

أفرغت في جوفي كأسي وقفلت عائدا إلى عزلتي وليس في رأسي غير زميلتي التي ما فتئت منذ عرفتها تخدعني برصانتها المغشوشة وأبّهتها الكاذبة.

صباحا، وصلت إلى المكتب قبل الوقت بساعة وبقيت أنتظرها على جمر كأنّني كنت على موعد معها.

قالت لي :

- صباح الخير سي خيري.

فرددت عليها :

- أهلا وسهلا.

وأخذت كفّها بين كفيّ... ولكنّها أسرعت تسحبها وهي ترمقني شزرا. تجاهلت نظرتها ووضعت يديّ على كتفيها وجذبتها إليّ... ولكنّها تخلّصت منّي بعصبية وهرولت نحو الباب هامّة بالهروب. لويت ذراعها وأدرتها إليّ حتّى أصبح وجهها يواجه وجهي وقلت لها :

- يكفيك تمثيلا. كنت بالأمس على مرمى ريشة منك في "نزل الهوى" ورأيت كلّ شيء، دخولك مع حريف لك وجلوسكما معا وما فعلتماه وما شربتماه ثمّ صعودكما إلى غرفة بالطّابق العلويّ.

احمرّت وازرقّت واربدّت وردّت :

- هذا هذيان خطير لا أسمح به لأحد حتّى لو كان مجنونا أو سكرانا أو معتوها... أنا لا أعرف هذا النّزل الذي تتحدّث عنه وليس لديّ حرفاء ولم أتعوّد أن أسهر خارج العائلة.

- بعينيّ رأيتكما. كنت هناك... وكان معك. ما رأيك لو تعيدين معي اليوم ما فعلته معه بالأمس ؟
- هذا تطاول سأحاسبك عليه.

ثمّ رفعت يدها وصفعتني فرفعت يدي وهويت على خدّها ثمّ بطحتها أرضا وارتميت عليها... جلب الصّراخ كلّ الموظّفين والموظّفات... ورئيس الإدارة... وتمّ فتح تحقيق عاجل أفضى إلى سجني شهرين كاملين ونقلي إلى قرية نائية.

3

و قال الذي كان سيصبح زوجا لها :

هممت يوما بتقبيلها ونحن وحيدان فدفعتني وصاحت في وجـــهي وغضبت منّي وهجرتني وأعلنت نقض الخطوبة ثمّ لم تعد إلى مجاريها المياه إلاّ بعد محاولات ومداولات وسلسلة اعتذارات.

ودعوتها مرّة إلى أن نزور البيت الذي اكتريته ليحتضن زواجنا القريب وتبدي رأيها فيه وتقترح

طريقة لتأثيثه فأصرّت على أن لا تضع قدميها في المحلّ الجديد إلاّ ونحن مصحوبان بأمّها وأختها وأخيها.

يوم أمس، طفنا ببعض الدّكاكين والمغازات لشراء الحاجيّات الأخيرة التي يتطلّبها عرسنا الذي اقترب، ثمّ أوقفت لها سيّارة لتعود بها إلى أهلها وبقيت أتسكّع في شوارع المدينة إلى أن هدّني الإعياء فاتّجهت إلى موقف الحافلة... فجأة رأيتها تركب سيّارة فخمة يقودها رجل أنيق... ارتميت في تاكسي ولاحقتهما... رأيتهما يدخلان مسرعين فيلاّ قدّرت أنّها على ملك الرّجل صاحب السيّارة الفخمة... طرقت الباب وضغطت بعصبيّة على الجرس واستعددت للهجوم فخرج إليّ صاحب البيت هائجا وأشبعني سبّا وركلا ثمّ رماني وليمة لأعين المارّة وعاد إلى وليمته.

4

و قال الرّاوي :

عندما بدأ الحديث يكثر حول سيرتها وازداد حول سلوكها وعلاقاتها القيل والقال ولم تعد تجد ما تدافع به عن نفسها وأيقنت أنّها لن تقنع النّاس بمجرّد الكلام والأيمان الغليظة، أصبحت تتعمّد درءا لكلّ لبس أن لا تظهر في الشّارع وفي كلّ الأماكن العامّة وأمام زملاء العمل وبين الأصدقاء والصّديقات إلاّ مصحوبة بأختها التّوأم صنوها في الطّول والعرض والامتلاء ومثيلتها في الصّوت والمشي والانحناء وشبيهتها حتّى في تسريحة الشّعر وطريقة الماكياج ورائحة العطر.

يخلق من الشّبه أربعين

قال الطّبيب لأهل المريضة وهو يمدّ إليهم وصفة الدّواء ويتفحّصهم بعينين ثاقبتين :

- أحيطوها بكلّ أسباب الرّاحة. أبعدوا عنها الأضواء الباهرة والأصوات العالية وأحاديث النّكد ولا تدعوها تغادر السّرير إلاّ لماما.

سألوه في صوت واحد :

- أخبرنا عن مرضها يا دكتور... ما الذي أصابها فجعلها فجأة تذوي وتفقد كلّ نشاطها وتعزف عن الأكل والنّوم والضّحك والكلام؟

- انهيار عصبيّ حادّ. ألم تقولوا إنّها فقدت عزيزا عليها ؟ اعذروني، نسيت أن أقول لكم : "البركة فيكم."

تقبّل الجماعة أوامر الطّبيب ونواهيه وتعازيه ثمّ ودّعوه على أمل أن يعود إليهم مرّة في كلّ يوم ليطمئنّ على مريضتهم ويراقب حالتها ويقيس مفعول الدّواء في أعصابها ويعدّل كلّما اقتضى الأمر وصفته ونصائحه... ثمّ انطلق زوج المريضة كالسّـهم نحو أقرب صـيدليّة ليحضر ما أمر الطّبيب بإحضاره ويشرف بنفسه على تقديم الجرعات اللاّزمة في الأوقات المحدّدة.

قال أبوها وهو يضرب كفّا بكفّ :

- هي والله عين أصابتها... وويل لمن أشارت إليه الأصابع ولو بخير. من كان يصدّق أنّ "سلوى" يمكن أن تكون في يوم من الأيّام ضحيّة لانهيار عصبيّ أو حتّى لزكام عابر ؟

وقالت أمّها وهي تلطم خدّيها بيديها :

- هو والله غضبي عليها حلّ بها. مرارا وتكرارا نصحتها بأن تبتعد عن ذلك الشّيطان الأحمر وأن لا تدع نفسها تتعلّق به قليلا ولا كثيرا... ومرارا قلت لها : " اكتفي بزوجك ودعيك منه... انسيه أو تناسيه وعوّضيه بأيّ شيء آخر أو بأيّ شخص جديد..." هو غضبي عليها حلّ بها ولا أظنّه يتركها سريعا.

وألقى زوجها نفسه بين أصدقائه الثّلاثة ثمّ قال :

- صدّقوني، لم أفرح لشيء مثلما فرحت لموت ذلك الشّيطان الأحمر. صحيح أنّ موته فـــجع زوجتي وســـبّب لها هذا الانهيار الرّهـــيب ولكنّها حتما ستشـــفى وستصبح لي وحدي.

وأسرع نادل الحانة يعقّب وهو يضع أمام الجماعة قوارير أخرى :

- أنا والله معتزّ بصداقتك لأنّك استطعت أن تأخذ حقّك بيديك وتتخلّص إلى الأبد من غريمك العنيد

الذي أفقدك راحتك وافتكّ منك أو كاد الحرم المصون -شفاها الله.-

ولكنّ الزّوج انتفض كمن صعق أو لسع وصاح :
- أقسم لكم يا جماعة أنّني لم أقتله. صحيح أنّني كرهته وحقدت عليه عندما تأكّدت أنّه أصبح يحول بيني وبين زوجتي التي أحبّها كثيرا ولكنّي لم أقتله ولم أفكّر بقتله. ستقولون لي كيف مات إذن. أنا أيضا فوجئت بموته ولم أستطع أن أجد له تفسيرا إلاّ بعد حين. الأمر وما فيه أنّه -لعنه الله-دفع باب غرفة نومنا وفاجأنا -زوجتي وأنا- معا. حدّق فينا بعينيه المستديرتين الواسعتين وفتح فمه عن آخره حتّى بان منبت لسانه ثمّ شخر وارتخى وسقط أرضا... أسرعت هي إليه لتنعشه و أسرعت أنا إلى الهاتف أستعجل طبيب العائلة الذي حلّ سريعا وأكّد موته وفسّره بأنّ المشهد الذي وقف عليه ألهب غيرته إلى درجة أن ارتفع ضغطه وفاض عن شرايين دماغه دمه فتوقّف قلبه وسكنت حركته وهوى ميتا.

صدّقوني يا جماعة، لقد كنت أدلّله كثيرا، وكنت إرضاء له ولها ألبّي طلباته الصّغيرة والكبيرة... ولكن، اتّق شرّ من أحسنت إليه.

قال الجماعة :

- دعك منه الآن، لقد انتقم لك منه الله إذ جعله ينتهي إلى هذه الميتة البشعة.

ثمّ انفضّ مجلس القوارير وعاد الزّوج إلى بيته ليفاجأ في صحنه بركام من شظايا بلّور وقطع صحون ومزهريّات وتحف وهدايا.

صاح بأعلى صوته :

- من الذي أقام في البيت القيامة ؟ من الذي زلزل الدّنيا وقلبها على أعقابها وعبث بالفخّار والصّور والبلّور والهدايا ؟

ردّ والداه معا :

- إنّها سلوى... ولكن لا بأس. لقد كسّرت الدّنيا ثمّ استسلمت للنّوم.

ثمّ بعد برهة :

- الحمد لله أنّها نامت.

ليلتها بات الزّوج يجهد ذهنه ليصل إلى حلّ ينهي مأساته أو يخفّفها... فكّر في أن يتركها لجنونها ونوباتها وحزنها ويضرب في الأرض بحثا عن النّسيان... وفكّر في أن يهجرها نهائيّا للضّرر ويتّخذ لنفسه واحدة تحبّه وحده دون سواه... وفكّر في أن يقترح عليها رحلة إلى مدينة بحريّة هادئة ويدع للبحر مهمّة غسل أحزانها وإعادتها إليه نقيّة كأن لم يمسّها همّ ولا نكد... وفكّر في أن يعرضها على متطبّب ويتوسّل إليه أن يقرأ عليها أجود التّعاويذ وأن يعدّ لها أنفع أخلاط الأعشاب... ولكنّه ومع اقتراب الفجر، تفتّق ذهنه عن فكرة أخرى قدّر أنّها ستنهي إلى الأبد هذا الحزن الطّويل وستعوّض زوجته عن عقاقير الاكتئاب والانهيار وتعيدها فراشة زاهية تنطّ وترتع فيه وفي البيت وفي الدّنيا... قال لن أحيطها علما بما عزمت عليه... سأفاجئها... وسأبرئها... وسأبعثها حيّة تسعى.

عندما تركت الشّمس مخبئها وبزغت للنّاس هامّة بأن تشرع في رحلتها اليوميّة المضنية، كان هو قد تناول إفطارا سريعا ووضع على جبين زوجته الملقاة على سريرها كعود حطب يابس قبلة لا طعم لها وخرج هامّا بتنفيذ برنامجه الذي أعدّه البارحة... اتصّل بصديق له يعمل بجريدة يوميّة ذائعة الصّيت، ومعا، حرّرا نصّ إعلان مطوّل ومفصّل للبحث بمقابل مغر عن واحد له نفس مواصفات المرحوم... العينان الزّرقاوان المستديرتان الواسعتان والشّعر الطّويل النّاعم والجسد الممشوق والذّكاء الخارق والحنان الفيّاض... ليس مهمّا من أيّة عائلة ينحدر ولا أيّ رصيد يمتلك... المهمّ أن يكون شبيها بالحبيب الأوّل... هكذا قدّر الزّوج الأمر... العثور على واحد يشبه تماما الفقيد العزيز هو أنسب حلّ لأزمة زوجته... سينسيها الجديد القديم... وسيحلّ سريعا محلّه... وستستعيد زوجته حياتها الأولى... أعجبته الفكرة ففكّر أن لا يكتفي بإعلان

الجريدة و قرّر أن يقضي ساعات من كلّ يوم يجوب الشّوارع والأزقّة والأسواق بحثا عن واحد يشبه المرحوم تماما... "سأهاتف أيضا أصدقائي في المدن الأخرى ليساعدوني على البحث عن غريم لي يشبه حبيب زوجتي الذي قتلته غيرته منّي عليها... يخلق من الشّبه أربعين... وأنا أبحث عن شبيه واحد... واحد فقط يحلّ محلّ الذي رحل فجأة ويعيد إلى زوجتي وقار أعصابها وهدوء بالها وحبّها الكبير للدّنيا وللحياة... أكاد أرى هذا الشّبيه قادما من خلال الجريدة أو من خلال أحد أصدقاء المدن الأخرى أو حتّى ماثلا أمام عينيّ ذات بحث في الشّوارع والأزقّة والأسواق... يخلق من الشّبه أربعين وأنا يكفيني واحد من الأربعين..."

أحسّ بقدميه تثقلان وترتخيان وتعجزان عن السّير به قدما فارتمى على كرسيّ في أوّل مقهى اعترضه... انتبه إلى النّادل يتفحّص صدره وكرشه وذراعيه و إبطيه فأسرع يوجّه بصره نحو

نفس الأمكنة التي تفحّصها النّادل ليشاهد بقعا كبيرة من العرق تحيط بها هالات بيضاء... لعن النّادل والعرق وثيابه وزوجته وعشيقها الذي غار منه عليها فمات وتركه يبحث عن واحد يشبهه تماما، ثمّ على عجل شرب قارورة الكوكاكولا ونهض يسير وراء الشّمس التي بدت وهي تؤوب إلى مرقدها تمشي مترنّحة متأفّفة من حرارة الطّقس ومن طول الطّريق.

قال أبواه معا :

- أين قضيت يومك و ماذا كنت تفعل منذ الصبّاح الباكر ؟

فاكتفى بأن قال :

- يخلق من الشّبه أربعين.

لم يفهما شيئا ولكنّهما تركاه يدلف إلى بيت الاستحمام ومن ثمّ إلى غرفة أخرى ليرتمي فوق السّرير ويهمد إلى صباح اليوم الموالي.

يخلق من الشّبه أربعين. وأنا يكفيني شبيه واحد. ولكنّ هذا الشّبيه تأخّر في المجيء إليّ... منذ أسبوع وأنا أنتظر أن يؤتي أكله إعلان الجـريدة وبحثي وبحث أصدقائي ويظهر شبيه يحلّ محلّ معبود زوجتي الذي قتلته بتركي باب غرفة النّوم مفتوحا... ومنذ أكثر من أسبوع وحالة "سلوى" تزداد سوءا على سوء رغم زيارات الطّبيب المتتالية ووصفاته المعدّلة المتجدّدة من يوم ليوم.

كان يمشي ويحدّث نفسه بسوء حال زوجته وتأخّر الشبيه عن المجيء إليه عندما تحرّك في جيبه هاتفه الجوّال ثمّ جاءه صوت صديقه الصّحفي :

- تعال إليّ حالاّ. لديك هنا بعض ردود على طلبك.

أخرج من جيبه صورة عشـيق زوجتـه. تأمّلها جيّدا. أعادت ذاكرته تسـجيلها بكـلّ التّفاصـيل التـي فيهـا : العينـان الزّرقـاوان المسـتديرتان... الجسـم الممشـــوق المتناســـق ... الشّـــعر الطّويـــل المسترسل...

قال لصديقه :

- يخلق من الشّبه أربعين وأنا يكفيني من الأربعين واحد.

ثمّ شرع في قراءة الرّدود وتسجيل أرقام هواتف وعناوين أصحابها... فكّر في أن يجمع كلّ هؤلاء الذين يؤكّدون أنّهم يشبهون الفقيد العزيز ويترك لزوجته مهمّة الاختيار... وفكّر أن يستعين بالصّورة وبصديقه ويختار بنفسه شبيها للمرحوم ثمّ يفاجئ "سلوى"... وفكّر أن يبدأ بدرس الطّلبات والشّروط قبل أن يتورّط في أيّ اختيار... وأخيرا قرّر أن ينتقل إلى كلّ هؤلاء الذّين أرسلوا إليه ردودا ويتّفق معهم على موعد لزيارته ليفاجئ زوجته بعشرين شبيها لفقيدها العزيز ويدعها تختار واحدا يحلّ محلّه.

أعجبت الفكرة والديـــه فانهمكا بمجرّد سماع الخبر في تنظـــيف البيت وترتيبه وتزيينه استعدادا لاستقبال العشرين شبيها ومن

سيرافقهم... وشعرت "سلوى" أنّ حركة غير عادية تدبّ في الدّار فتحاملت على نفسها وخرجت تستطلع الأمر... ثمّ جاء المساء... وبدأ الضّيوف يتوافدون... سلّم عليهم الزّوج واحدا واحدا ثمّ أعاد تذكيرهم بمأساة زوجته واضطراره إلى نشر إعلان للبحث عن واحد يعوّض حبيبها الذي توفّته الغيرة... ثمّ ذهب يدعو زوجته إلى الوقوف على مفاجأته.

- جئتك بعشرين شبيها للمرحوم. خذي من الوقت ما يكفــيك لتتجوّلي بينهم وتتشمّمي روائحهم وتختبري ذكاءهم ثمّ اختاري منهم واحدا أو حتّى أكثر. المهمّ أن تجدي من بينهم من يعوّضك عن الفقيد العزيز...

لم تقل "سلوى" شيئا... نظرت في عيني زوجها بإشفاق شديد ثمّ أخذت تذهب وتجيء بين العشرين شبيها تقيس عرضهم وطولهم وارتفاعهم... تنظر في عيونهم... تفرك في أناة

شعورهم... تتشمّم روائحهم... ثمّ توقّفت أمام واحد منهم و أشارت لزوجها :

- هذا، إنّه كالمرحوم تماما. الحـــجم حجمه واللّون لونه، العينان عـــيناه والرّائحة رائحته.

وفيما ارتسمت على وجه زوجها ابتسامة عريضة ارتسمت على وجوه بقيّة المرافقين الذين لم يسعفهم الحظّ أمارات امتعاض وخيبة و بدؤوا ينسحبون ...

اقتربت "سلوى" من كلبها الجديد وبدأت تلاعبه وانتحى زوجها بصاحب الكلب جانبا من الدّار وبدأ يجادله في السّعر.

أربع قصص قصيرة جدّا

1) رائحة الموز.

تلقّى صحفيّ بجريدة أسبوعيّة تسمّي نفسها "صوت الحقّ" رسالة جاء فيها :

"ما كتبته حول شقيقي رجل الأعمال الذي رمى نفسه في البحر بعدما رمى موزه للحوت أثلج والله أرواحنا وعزّانا فيه وأسكت بعض الفراغ الّذي خلّفه رحيله عنّا...

زوجته أصرّت على أن تبني له قبرا ويوم صدر مقالك تسلّلت إلى المقبرة وحفرت في أعلى قبر زوجها ووضعت ما كتبته مكان الوجه... وصدّق أو لا

تصدّق، لقد أقسمت أنّ رائحة الموز كانت تفوح من قبر زوجها الفارغ وتملأ أرجاء المقبرة.

أرجوك، دع رسالتي سرّا بيننا ولا تكتب عن رائحة الموز حتّى لا يقتلع الغضب قبر المرحوم ويرمي به إلى البحر".

2) نهايتان :

①

سدّ النّاس الشّوارع والأزقّة المؤديّة إلى منزلها والشّوارع والأزقّة المؤديّة إلى المقبرة حيث سيوارى جثمانها بعد ساعات. جاء لتشييعها عامّة الخلق ومسؤولون كبار وصغار ورجال صحافة وإعلام وحضرت الموكب قنوات أرضيّة وقنوات فضائيّة ولم يبق بعد صلاة العصر خارج المقبرة وبعيدا عن ساحتها غير الرّاقدين في المستشفيات والمحكوم عليهم بالسّجن ومن أقعدهم الكبر عن تتبّع الجنائز وزيارة المقابر.

في المساء بثّت نشرة الأخبار الرّئيسيّة مشـاهد من جنازتها والتقطت صـورا للنّاس يبكونها ويعدّدون مناقبها ويدعون لها بالرّحمة ولهم بالصّبر على فراقها... وتلت قارئة الأخبار التي ظهرت بلا ماكياج وفي ثوب أسـود برقيّات تعاز موجّهة إلى أهل الفقيدة ومحبّيها ومريديها.

②

نشـر بوق الجامع الكبير خبر موته وأعلن عن موعد الدّفن ومكانه وتطوّعت الهواتف الجوّالة والقارّة فبثّت خبر انتقاله إلى رحمة الله إلى الأقارب والأصدقاء ومن يهمّهم الأمر وذكّرت بأنّ الموكب سـينتظم بعد صلاة العصر...

... لمّا أعيا أهله الانتظار ولم تجد الشّـوارع والأزقّة والسّـيّارات المارّة على عجل بغير أنفار قليلين، أركبوه سـيّارة أحدهم وسـاروا وراءه

يشيّعونه إلى مثواه الأخير... كانت المقبرة فارغة إلاّ منهم ولم يكن في انتظارهم ولا وراءهم غير مشيّعين قليلين.

في المساء، لم تقل عنه التّلفزة شيئا ولم تشر الإذاعة ولو مجرّد إشارة إلى رحيله وانتظر أهله أن تصلهم برقيّات تعزية ومواساة فلم يصلهم بعد مدّة سوى اقتراح من إحدى الجهات بأن يطلبوا تحويل مكتبته الخاصّة إلى مكتبة عامّة يزورها القرّاء ويتبرّكون بها.

هامش أوّل : كانت تعرض للنّاس لحمها الأبيض المكتنز و فتنتها المتّقدة.

هامش ثان : كان يعرض للنّاس عقله الواسع وحيرته المستديمة.

3) الحكيم :

عندما أصبح طالبا في كلّية الطبّ، بدأ أصدقاؤه وأهل حيّه ينادونه باسمه مسبوقا بلقب الحكمة.

عندما تخرّج ونال الشّهادة بامتياز بدؤوا يعرضون عليه أمراضهم.

عندما طالت بطالته وبدأ يداخله اليأس من أن يعيّن في إحدى المستشفيات، أصبح يثور في وجوه كلّ الذين يذكّرونه بالطبّ وبالحكمة.

تخلّى أصدقاؤه وجيرانه عن الألقاب وأصبحوا ينادونه باسمه حافيا، واتّفق نفر منهم على أن يتكفّلوا بسجائره وقهوته وبطاقات هاتفه الجوّال.

أشفقت عليه عجوز أجنبيّة فعقدت عليه قرانها وساقته أمامها إلى بلدها البعيد فلم يمرّ عليه هناك عام واحد حتّى أينع اسمه ونوّر وتداعى الخلق من كلّ صوب يحجزون لهم مواعيد في عيادته.

قالت امرأته الأجنبية :

- إن شئت دعني وتزوّج. ابحث لك عن فتاة طريّة تناسب عمرك وشهادتك وشهرتك.

ثار وأرعد وأزبد وهدّدها إن هي أعادت عليه الأمر بغلق العيادة والرّحيل ثمّ شرع في إجراءات الحصول على جنسيّة زوجته العجوز.

4) الكلام الأخير :

لم يعد يفصلني عن موعدي معها سوى ساعة واحدة ومازالت أمامي مائة كيلومتر كاملة. مائة كيلومتر تعني حوالي خمسين دقيقة. سأصل قبلها إلى نزل الهناء... وسأنتظرها عشر دقائق كاملة. أعرف أنّها لا تستقدم ولا تستأخر عن مواعيدها... ستكون ماثلة أمامي في تمام العاشرة. سنطلب قهوتين وقارورة ماء بارد... وسنتحدّث للمرّة الأخيرة... هكذا قالت... قالت سيكون اللّقاء الأخير. إمّا أن نتّفق ونمرّ مباشرة إلى

إجـراءات الـزّواج أو نصـل إلـى الاخـتلاف التّـام... ويذهب كلّ منّا في حال سـبيله... ولكنّـي لـن أفـرّط فيها... سأتنازل... وسأقبل كلّ شروطها المجحفـة... وسنمرّ إلى إجراءات الزّواج... سأختصر النّقاش فـي جملة واحدة : أنا موافق على شروطك كلّهـا... فقـط تعـالي نتـزوّج... أشـعلت فـي وجهـي أربـع سـيّارات متتالية أضواء سريعة خاطفة... وهذه سـيّارة أخـرى تنحو نحوهم وتحيّيني بضوء خاطف... ولكن لا يهـمّ... مازالـت أمـامي خمسـون كيلـومتر فقـط. خمسـون كيلـومترا تعنـي أقـلّ مـن ثلاثـين دقيقـة... الهـاتف الجّوال يرنّ...

- آلو.
- آلو، أهلا. بيني و بينك الآن ... آآآآآآآه

سمعتها تقول آلو وسمعتني أصرخ آآآآآآآه... ثمّ خيّم الصّمت من حولي.

ولم أسمع شيئا إلى ما بعد أذان العصر حيث عادت أذناي لتتنبّها من جديد وتلتقطا أربع تكبيرات

جماعيّة... وقرآنا يتلى... ودعاء يؤمّن عليه بأصوات كثيرة... ووقع خطوات تبتعد.

الفهرس

رأسي الجديد---------- 07

عين في بيضة---------- 19

بائع التّين و الرّجل الصّورة---------- 32

حكاية راقصة---------- 43

صدفة آخر اللّيل---------- 60

القرار الأخير---------- 69

نصف السّاعة الأخير---------- 77

20 - مارس- 9أفريل---------- 86

سبعة أيّام جديدة---------- 95

أنا و هي و اللّيل---------- 103

الكاتب الآخر---------- 111

احضر حالاّ ---------- 122

ليلة خانتني صاحبتي---------- 132

كان ...هنا---------- 154

مرايا ---------- 129

يخلق من الشّبه أربعين---------- 163

أربع قصص قصيرة جدّا---------- 177

الفهرس---------- 184

dimanche 21 mars 2021

صالح مبروكي

SALEH MABROUKI

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021